جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

قضايا إسلامية
سلسلة تصدر
غرة كل شهر عربى

العالم الإسلامى
بين
مصادر القوة وعوامل الضعف

أ . د . أحمد عبد الرحيم السايح

[القسم الأول]

العدد [٦١]

ربيع الأول ١٤٢١هـ - يونيو ٢٠٠٠م

يشرف على إصدارها

أ . د / محمود حمدى زقزوق
وزير الأوقاف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

أ . د / عبد الصبور مرزوق
نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

على سبيل التقديم

بقلم أ . د . عبد الصبور مرزوق
نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

هذه القضية :

قضية حال أمتنا بين عناصر قوتها وأسباب ضعفها هى قضية عصرنا وينبغى أن تكون قضيتنا فى كل العصور حتى نجد حلاً لها .

ذلك أن قضية قوة المسلمين ليست مجرد شعار وطنى أو مسألة تأهب لصراع عسكرى تكون الغلبة فيه لمن يملك القوة .

لكنها قضية صراع حضارى بين الحق والباطل وبين الظلم والعدل وبين توفير الكبرياء للإنسان الذى استخلفه الله فى الأرض بعدما ميّزه بالعلم وأسجد له ملائكته ، وبين ما يتعرض له اليوم من إذلال وامتهان وحرمان من أبسط الحقوق التى شرعها الله له فى ظل غطرسة الأقوياء وأنانية الأغنياء وعنصرية ازدراء البيض للسود وأهل الشمال لأهل الجنوب .

من هنا يكون أمر قوة الأمة المسلمة ضرورة حضارية وإنسانية كبرى تمكن لهم من إرساء قيم الحق والعدل وتساعدهم على التمكين فى أرض الله لكلمات الله .

ومن هنا يصبح من الضرورات الدينية ألا يغفل أبداً ولاة أمر هذه الأمة عن العمل الدائم لتوفير هذه القوة للأمة حتى تكون أهلاً للنهوض بدورها القدرى الذى اختاره الله لها وقرر لها الخيرية على أساس نهوضها به فى قوله سبحانه : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾[1] .

ولأننا فى القرن الحادى والعشرين نعيش زمان إنسان أفسده الاغترار بالعلم فنسى الله وبات يسجد لمعطيات هذا العلم مع ما جرى للتفوق العلمى من سوء استخدام فى صنع الدمار مع الإهدار الأكبر لإمكانية تسخير العلم لعلاج الأمراض وتحسين سبل الإنتاج أو مواجهة الأوبئة وما إليها .

هذا الإنسان نفسه قد أفسدته الأنانية البشعة التى نماها وأبرزها فيه عبادته للمال والاكتناز وتوفير المزيد من التراكمات والأرصدة فأصبح مثل قارون الذى أوتى ما لم يؤته أحد قبله فقال : ﴿ **إنما أوتيته على علم عندى** ﴾[2] . ورفض الإحسان إلى الفقراء والمحتاجين .

قارون قوم موسى الذى تحدث القرآن عنه أصبح فى عصرنا هو النموذج الأمثل الذى يحتذيه أهل الحضارة الصليبية

---

(١) آل عمران : ١١٠ .

(٢) القصص : ٧٨ .

المعاصرة ليس فقط على مستوى الأفراد بل على مستوى الدول التى يدفعها الحرص على التراكم إلى مزيد من الجشع ومزيد من السّعار بالمزيد من المال والمزيد من الربح فرأينا دولا تلقى فائض الزبد فى المحيط وأخرى تحرق فائض القمح ، وثالثة ترصف الطرقات بفائض القطن .

كل هذا يصنعه أولئك المسعورون بالمال دون أن يتحرك فى وجدانهم أى احساس بأن فى العالم الثالث بين أفريقيا وآسيا ملايين من خلق الله لا تجد لقمة طعام والجوع يهلك أطفالها وشيوخها والأغنياء يتفرجون لا يتحرك فى قلوبهم أى وازع للتعاطف أو الاشفاق والرحمة .

من هنا تبحث الإنسانية عن منقذ قوى قادر يعيد إنسان هذه الحضارة الغربية الصليبية إلى صوابه ، ويعلّمه أن الرزق الذى يفيض به الخالق على خلقه هو حق لكل مخلوق من البشر بصرف النظر عن عقيدته أو عن جنسه أو لونه أو ثقافته .

لأن فى منظور الإسلام أن كل خلق الله من البشر هم عيال الذين تكفل الحق سبحانه برزقهم فى قوله : ﴿ **إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾[1] . بل فى العهد الذى أخذه على نفسه فى قوله : ﴿ **وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها** ﴾[2] .

---

(١) الذاريات : ٥٨ .

(٢) هود : ٦ .

وطبيعى أن أهل الشمال فى الغرب الصليبى الذين قتلت الأنانية وقتل افتنانهم بالمال فيهم إنسانية الإنسان ليس من اليسر أن يستجيبوا للدعاء الإنسانى إلا إذا كانت أمة الإسلام الداعية والمأمورة بالنهى عن المنكر والأمر بالمعروف قادرة على أن تحملهم على هذا - بعد الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة إلا بالقوة القاهرة .

ومن هنا للقوة فى الإسلام معنى حضارى - بعيد كل البعد عن مجرد العنف والغطرسة ، يتم استخدامه فى إرساء القيم النبيلة اللائقة بمكانة الإنسان .. قيم الحق والعدل والرحمة والتعاطف وساعتها سيكون للتحضّر معنى إنسانى عظيم يحمله ويساعده على التعايش والتوادّ والتكافل .

وهذا ما من أجله نشر المجلس هذه الدراسة التى نسأل الله أن ينفع بها وأن يثيب كاتبها .

وبالله التوفيـــــق ....،،

أ . د . عبد الصبور مرزوق
نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــة

الحمد لله رب العالمين . الذى أكمل الدين وأتم النعمة ، ورضى الإسلام للإنسانية ديناً . والصلاة والسلام على رسول الإنسانية محمد بن عبد الله المبعوث رحمة وهداية للناس أجمعين .

أما بعد ..

فلقد عرف المسلمون الأولون منزلة القوة وفضلها ، وأدركوا مبلغ الحاجة إليها . فى دنياهم ، وبناء مجتمعاتهم ، ودعم سلطانهم . وأنها هى التى تفتح لهم آفاق الحياة العزيزة الكريمة . عرف المسلمون هذا - انطلاقاً من دعوة القرآن الكريم - فوجهوا العزائم الصادقة إلى أن يكونوا دائماً أقوياء . ولم يشغلهم عن طلب القوة وترف الحضارة ونعماؤها ولا ثنت عزائمهم عنها بأساء الحياة وضراؤها .

ولهذا استطاعوا أن يعملوا عمل الأقوياء . لأن العمل لبناء المجتمعات لا يصدر إلا عن إرادة قوية ، والإرادة القوية الدافعة لا تنبثق إلا من عزائم دافعة وبانية . والأمم التى أفقدها الجهل قوة الإرادة ، وصدق العزيمة . لا يمكن أن تعمل شيئاً .

وقد لا يخفى على أهل العلم .. أن مجتمعات الأمة الإسلامية حين ابتعدت عن المنهج الأمثل . أصابها الضعف فى مواقع متعددة ومواطن كثيرة . فتزاحم المتربصون يريدون أن يقضوا عليها ، ولهذا تتعرض مجتمعات المسلمين لتحديات خطيرة .

ولتحقيق هذه التحديات . يستخدم الغرب أساليب ووسائل وشعارات . وقد لا يخفى أن التحديات الغربية تعمل بكل ما تملك على إضعاف المجتمعات الإسلامية ، ونهب خيراتها ، والهيمنة على تحركاتها .

وأصبحت التيارات المختلفة ، والمشاكل المصنعة تزحف على مجتمعات الأمة فى خبث ودهاء ، ومكر ، وخداع . لتنصرف المجتمعات عن حركة الحياة ، وتنشغل بما يشغل .

لقد عانت المجتمعات الإسلامية من التيارات الزاحفة ، وشغل الناس بها . مما صرف عن المواكبة العلمية ، والفهم الصحيح لمبادئ الإسلام ، وأصبح الناس يتغنون بالماضى وهم نائمون فى رقدة أشبه بالموت .

لقد تعرضت المجتمعات لهجمة شرسة . يقودها أعداء الإسلام من خلال تيارات التبشير والاستشراق ، والصهيونية ، والماسونية ، والقومية ، والعلمانية .

وتحاول هذه الهجمة أن تنال من الأمة الإسلامية فى مجتمعاتها المختلفة لتنزع منها شخصيتها التى كانت لها وقت أن كانت الأمة قوة يتهيب الأعداء بأسها ، ويخشون سلطانها .

إن الحركات الهدامة ، والتيارات المختلفة ، والضغوط القاتلة تحاول جهدها أن تعيق العمل الإسلامى . كى لا ينطلق بالمسلمين إلى كل ما من شأنه أن يأخذ بالأمة إلى التنمية ، والإنتاج والتقدم .

وقد لا يكون المرء مجانباً للصواب . إذا تأكد لديه : أن ما تعانيه مجتمعات الأمة الإسلامية . من هزائم فكرية ، واقتصادية ،

وسياسية ، ومشاكل إقليمية . هو نتيجة حتمية لإصرار الغرب على إضعاف العالم الإسلامى ومجتمعات الأمة . ليصبح المسلمون مسخاً ، شائهاً ، تائهاً .

ولكن إذا كانت مجتمعات المسلمين تعانى من التحديات . فإنها - والحمد لله - تملك رصيداً ضخماً من القيم الهادفة ، والمعانى الإنسانية ، وعوامل التقدم ، ومراكز القوة ، والإمكانات المتاحة ، والطاقات البشرية ، والعقول الواعية .

مما يشكل عطاءً حضارياً يمكن استثماره فيما ينطلق بالعالم الإسلامى إلى كل ما من شأنه أن يأخذ بالمسلمين إلى الطريق الصحيح .

إذن .. لابد من مواجهة التحديات بالحكمة ، واتخاذ القرار من أصحاب القرار . ولابد كذلك من نشر الوعى الثقافى . بمعنى أن نوضح لدى الخاصة والعامة المفاهيم الصحيحة والأساسية . ولا يخفى أن توضيح المفاهيم بكل السبل المتاحة ضرورة حياتية .

ويكاد يكون مؤكداً لدى الباحثين : أن قوة المجتمعات تبدأ حين ينتهى القلق والاضطراب لأنه إذا أمن الناس تحررت فى نفوسهم دوافع التطلع ، وعوامل الإبداع . وبعدئذ لا تلبث الحوافز الطبيعية أن تستنهض المجتمعات .

وإذا كانت مجتمعات الأمة الإسلامية تملك رصيداً ضخماً من القيم . فإن من حق هذه الأمة . أن تخطط لمستقبل الإنسانية . لتنال حظها من الاستقرار والأمن .

وقد لا يكون المرء مجانباً للصواب . إذا تأكد لديه : أن إبراز مصادر القوة فى العالم الإسلامى ضرورة حياتية لأن من شأن أبناء الأمة أن يقفوا على ما حباهم الله سبحانه وتعالى به .

وقد حاولت جهدى أن يكون الفصل الأول من مؤلفى هذا مشتملاً على مصادر متعددة من : الإيمان بالله ، والإخاء الإسلامى ، وعطاء الإسلام واستمراره ، وشموليته ، ويسره وسماحته ، والعقلية العلمية ، والإمكانات المادية .

ولا شك أن هناك مصادر أخرى كثيرة ومتنوعة لمجتمعات المسلمين . ولكن الباحث حسبه أنه بحث فى أهمها - من وجهة نظره -

أما الفصل الثانى : فكان لابد أن يتعرض لعوامل الضعف التى أصابت المجتمعات الإسلامية من العداء الصليبى الذى لم ينته بعد ، والاستعمار الغربى ، والضعف الفكرى ، والتخلف الاجتماعى ، والعلمانية ، والماسونية ، وحركة التغريب ، والغزو الفكرى .

وقد لا يخفى أن هناك عوامل أخرى . قد تكون خارجية ، وقد تكون داخلية ، عملت على إضعاف العالم الإسلامى . وحسب الباحث أنه تناول منها ما وقع تحت رؤيته .

أما الفصل الثالث : فكان لابد منه . ليكون بدايات فى الطريق ، ومعالم تضئ . والمعالم كثيرة . وقد تكون الإشارة إلى بعضها دليل صحة ، وصحوة .

ولا يخفى أن مجتمعات العالم الإسلامى فى أشد الحاجة إلى المعالم التى ترشد الغيورين والمصلحين إلى طريق الرشاد ، والمسئولية ، والعمل البناء ..

الدكتور / أحمد عبد الرحيم السايح

الأستاذ بجامعة الأزهر ، وجامعة أم القرى



الفصل الأول

مصادر القوة

فى العالم الإسلامى



المبحث الأول : الإيمان بالله

من المعلوم أن الإيمان هو نبع الفطرة فى صدقها وصفائها .. وإذا صدق الإيمان فى القلب ، كان لذلك آثاره فى عقيدة المؤمن وشعوره ، وفى صلته بالله تعالى ، وفى جهاده فى الحياة ، فلا يقبل إلا الحق ، ولا يعبد إلا الله ، ولا يخشى فى الله لومة لائم ، ولا يرتبط بالباطل فى قول أو عمل ، بل يكون شهيداً على الناس من حوله ، يرشد ضالهم ، وينصح مخطئهم ، ويعطيهم من نفسه المثل والقدوة بأخلاقه وسلوكه ، مؤثراً فيهم بما فى قلبه من النور واليقين ، غير متأثر بما لدى البعض من باطل .

وصاحب الإيمان الصادق لا تزيده الأيام إلا يقيناً ، فإن أصابه خير شكر ربه ، وأدى حق الله فى نعمته ، وإن أصابه شر حمد الله ، ورضى بقضائه ، ولا يضعف ثقته بالله شىء .

قال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون** ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم** ﴾[1] .

---

(١) الحجرات : ١٥ .

(٢) الأنفال : ٢-٤ .

روى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال :

قال ﷺ : [**المؤمنون فى الدنيا على ثلاثة أجزاء : الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، والذى يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم ، والذى إذا أشرف على طمع تركه لله عز وجل**] .

وكما أن الخوف من الله ومراقبة جلاله أثر من آثار الإيمان الصادق ، فإن حب الله ، وحب الرسول ﷺ وحب الإسلام ، كمنهج للحياة بحيث لا يربو على هذا الحب شيء أبداً ، يدل على صدق الإيمان كذلك وعمقه فى ضمير المؤمن .

ولا شك أن الإيمان الصادق العميق ، يحيا به ضمير المؤمن ، وتسلم به اتجاهاته .. فبينما يتخبط الملايين ، فى دياجير الظلام الحالك ، وسبل الضلال ، ترى المؤمن بوحى من تفاعل الإيمان فى كيانه : مرهف الحس ، صادق العزم ، صالح العمل لا تستذله الحياة ، وما فيها ولا تعصف به الشدائد مهما بلغت حدتها .

قال تعالى : ﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يُضلل الله فما له من هاد** ﴾[1] .

---

(١) الزمر : ٢٣ .

فقوة الإيمان فى نفس المؤمن ترفع مقتضيات الإيمان فوق كل شىء ، وتجعل المؤمن وثيق الرابطة بما يمليه عليه إيمانه ، لا يشغله عن ذلك شاغل .. ومهما اشتد البلاء فإن المؤمن لا يزداد إلا ثباتاً ويقيناً ، ذلك لأن قوة الإيمان فى القلب تمد المؤمن فى كل أحواله بنور الاهتداء ، وكمال الرجاء .. ذلك شأن المؤمن فى كل أموره ، فى عبادته لله ، وذكره إياه ، وفى حرصه على مرضاة الله ، مهما تكاثرت عليه مشاغل الحياة ، وفى خضوعه دائماً لأمره ، وفى كمال ثقته بالله ، وصدقه معه ، وتصديقه لوعده .. فهو يحيا مع الله ، قولاً ، وعملاً ، وقلباً ، وجسداً ، وسلوكاً ، كذلك من شأنه إلا يهادن أهل الباطل أو يلين فى مقاومتهم .

ومن المعلوم أن الإيمان ليس كلمة تقال وكفى .. وليس شعاراً يطرح ثم ينفذ ، وإنما هو أولاً وقبل كل شىء : عقيدة وعمل ، عقيدة تخالط شغاف القلوب ، وتسرى مع الدم فى العروق ، لا يدركها ريب ، ولا يلحقها شك أبداً ، وهذه العقيدة لا تكون صحيحة كاملة ، ولا تكون سليمة تامة إلا إذا أتت ثمراتها الطيبة .. سلوكاً مستقيماً ، وأخلاقاً طاهرة ، وأعمالاً رشيدة ، ومن ثم لا يذكر الإيمان فى القرآن الكريم إلا مقروناً بالعمل الصالح ، مثل قوله تعالى : **﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم ﴾**[1] .

---

(١) يونس : ٩ .

وهكذا يتبين للمسلمين أن الإيمان ليس قولاً بلا حقيقة ، وليس ادعاء بغير دليل أو برهان ، ولقد فهم المسلمون القرآن الكريم ، وتشربوه فى نفوسهم ، وتمثلوه فى أعمالهم ، فكانوا بذلك مثار العجب فى يقينهم الثابت ، ونشاطهم الدائب ، وسلوكهم الفاضل ، وأخلاقهم العظيمة ، وعمارتهم للأرض ، وعبادتهم لله ، تجاوباً بذلك كله مع حقيقة الإيمان فدانت لهم الدنيا ، وامتلكوا زمام الجاه ، والسلطان ، والقوة ، وتبوأوا قمم المجد فى أسمى مراتب الحياة الحرة الكريمة .

وشاءت إرادة الله تبارك وتعالى أن تكون الأمة الإسلامية ، خير أمة أخرجت للناس ، تحمل الأمانة ، وتنشر أنوار الحق ، وتأخذ بيد الناس إلى أقوم طريق ، وأهدى سبيل .

وكلما كان الإيمان عميقاً فى الصدور : أحس المؤمن بذاته ، وأحسن النظر إلى واجباته ومسئولياته .

وإذا كان المجتمع البشرى يموج بعضه فى بعض ، تحركه أمواج عاتية من الفتن والضلال ، فإن أهل الإيمان يشعرون إزاء ذلك بأمرين :

الأمر الأول :

أن يستمسكوا بالحق جاهدين فى العمل به وحمايته .

الأمر الثانى :

حماية أنفسهم من أن يجرفهم تيار الفتن الذى يحيط بهم .

وأمر ثالث :

لضمان مسيرتهم : أن يكونوا مُثلاً حية صادقة لمبادئ دينهم ، ليرى فيهم الناس ما يدعو إلى هيبتهم واحترام دينهم ، ولتكون مثاليتهم فى حياتهم أكبر داع إلى الله ورسوله .

قال تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾[1] .

وإذا كان خير المقال ما صدقه الفعال ، فإن الإسلام يوجب على الأمة أن تحمل دعوة الحق إلى الناس ، وتسوسهم برفق إلى صراط مستقيم .

قال تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾[2] .

وإن قوة الإيمان بما تفيض على النفس من طمأنينة ، وبما تعطى من الاندفاع الواثق فى طريق الحق ، منفعلاً به داعياً إليه ، معتزاً بما لديه ، لا يحيد عنه ، ولا يقصر فيه ، هى أعلى ما اكتسب الإنسان لأنها صمام الأمان من غضب الله ، وضمان النصر للمعتصمين بالله ، وسبيل النجاة من عذاب الله فى دار الجزاء .

---

(١) آل عمران : ١١٠ .

(٢) آل عمران : ١٠٤ .

بهذا يحس كل مؤمن إحساساً يجعله أقوى من أن يهزم أمام باطل ، أو يضعف فى مواجهة فتنة ، أو يستسلم لهوى ، أو يستمرئ معصية .

والمسلمون فى أمس الحاجة إلى هذا الإيمان الكامل ، الإيمان الذى يقتضى من المؤمن أن يتخذ سبيلاً إلى الله عز وجل .

فتجئ أعمال المسلمين وفق عقيدتهم ، فلا يرهبون من أحد أبداً ، ولا يذعنون إلا لسلطان الله ، ولا يعملون من عمل إلا وهم يريدون به وجه الله سبحانه وتعالى .

يفعلون ما أمر به جل جلاله ، ينتهون عما نهى عنه ، يذوبون رحمة لإخوانهم المؤمنين ، فيواسون الفقير ، ويجبرون الكسير، ويقوون الضعيف ، ويشدون العزائم ، ويستنهضون الهمم .

ويكونون دائماً عوناً لإخوانهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، ويحملون على أعداء الإسلام ، فيجاهدون بالقلب والمال والنفس ، يفلون عزيمتهم ، ويكسرون شوكتهم .

ويعملون جاهدين على ألا يكون لأعداء المسلمين سبيل على المؤمنين ، لا فى أنفسهم ، ولا فى أرضهم ، ولا فى أوطانهم .

المبحث الثانى : الإخاء والوحدة

الإخاء الإسلامى .. هو الأصل الأصيل فى بناء دولة الإسلام ، وقيام الأمة الإسلامية .. ولقد كان العرب - قبل الإسلام - والناس معهم على شفا حفرة من النار . متشاكسون ، متنافرون ، متحاربون . سنين طويلة ، من أجل ناقة فنزلت الآيات . قيل لهم : تحابوا ، فتحابوا . قيل لهم : تآخوا . فتآخوا . ثم قيل لهم : انفروا . فهبوا خفافاً وثقالاً .. تنزلت الآيات .. فقالوا : سمعنا وأطعنا . ومؤمنو مكة ، على اختلاف قبائلهم ما عرفنا لهم اسماً فى التاريخ إلا المهاجرين ، ومؤمنو المدينة على اختلاف قبائلهم ما عرفنا لهم اسماً فى التاريخ إلا الأنصار فإذا بالفرقاء والمتشاكسين دولة [1] .

والإسلام لم يكتف بإطلاق اسم المهاجرين ، على المؤمنين من أهل مكة الذين هاجروا إلى المدينة .. ولم يكتف أيضاً بإطلاق اسم الأنصار على قبيلتى الأوس والخزرج .

لم يكتف الإسلام بهذا . ولذا نجد رسول الله - ﷺ- يبدأ فى البناء الأخوى الكامل ، ليقيم دولة الإسلام على أساس سليم .

قال ابن اسحق : (وآخى رسول الله ﷺ ، بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال فيما بلغنا : تآخوا فى الله أخوين أخوين) [2] .

---

(١) مجلة البحوث الإسلامية ، العدد الأول ، الرياض ، السعودية .

(٢) سيرة النبى لابن هشام . الجزء الثانى ، ص ٣٥١ .

والأخوة فى الإسلام ، قاعدة الحياة ولا حياة بدون إخاء ، والأخوة فى الإسلام فوق كل الحواجز الجنسية ، والعرقية ، والقومية ، والحزبية والسياسية .. وهى فى الإسلام تقوم على أصول أصلية ، وقواعد متينة .

١ - من ذلك وحد الأصل الإنسانى . فالناس جميعاً على اختلاف أجناسهم ، وتمايز ألوانهم ، وتباعد أقطارهم .. يرجعون إلى أب واحد ، وأصل واحد ولطالما ذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة وبينها فى أساليب شتى ، وآيات متعددة لكى تكون دائماً موضع الاعتبار والرعاية .

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا** ﴾[1] .

فهذه الآية العظيمة - كما ترى - تقرر أصلاً من أصول الإسلام ، وهو المساواة بين الناس .. ولقد قررت هذه الآية ، مبدأ ضخماً من المبادئ الإنسانية السامية .. فهى من معجزات هذا القرآن العظيم الذى أنزله الله ضياء للناس ونوراً يهتدون به وبرهاناً ساطعاً ينير السبل أمامهم .

وكان العالم قبل انبثاق نور الإسلام ، يموج فى الظلم ، ويضطرب فى الفساد وتسوده الهمجية ، والعصبية الجاهلية ، وتخيم عليه ضلالات العصور القديمة ، وقد نشر الرعب أجنحته على الدنيا وزاد الفساد ، وتفاخر الناس بالأنساب ، وعاشوا تحت ظل نظام الطبقات .

---

(١) الحجرات : ١٣ .

فى هذه الظلمة الداكنة ، ينبثق فجر الإسلام ، فتبدد أنواره ، تلك الغيوم السوداء .. وتنزل هذه الآية الكريمة ، لتقرر مبدأ إنسانياً عظيماً .. وهو إعلان المساواة بين البشر ، كل البشر [1].

والمسلمون هم أحق الناس بالحفاظ على الأخوة ، وأجدر الناس باتباع هدى القرآن وتعاليم الرسول ﷺ .. ومن الأصول الأصيلة للأخوة فى الإسلام .. وحدة العقيدة .

٢ - ووحدة العقيدة من أهم الركائز لوحدة المسلمين ، وتكامل أخوتهم . وعقيدة المسلمين واحدة ، لا تختلف باختلاف جنس من الأجناس ، أو لون من الألوان ، أو مصر من الأمصار أو جيل من الأجيال ، أو زمن من الأزمان . هذه العقيدة قائمة وتقوم على الإيمان بالله ، وبرسول الله وبكل ما فى القرآن .. وأن الإسلام هو الإسلام .. والقرآن هو القرآن .. ومن آيات العقيدة فى القرآن .. قول الله تعالى : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى**

(١) نظرات فى سورة الحجرات للشيخ الصواف ص ١٤٧ ، ط : السعودية .

البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾[1] .

وعقيدة الإسلام .. واحدة لدى كل المسلمين فى شرق الأرض وغربها ، وشمالها وجنوبها ، تجتمع عليها قلوبهم ، وتحفظها عقولهم ، وتستيقنها نفوسهم ، ووحدة العقيدة .. جددت بين المسلمين ما مضى من قرابة الدم القائمة بينهم .

وإذا كانت أبوة آدم عليه السلام ، أبوة مادية ، تجمع بين الأمة الإسلامية ، وتوحد بينها فى الأصل .. فإن العقيدة الإسلامية هى أبوة روحية ، ترجع إليها فروع المؤمنين والحق أن المؤمن حينما يستشعر جلال هذا الأصل الروحى ، الذى يجمعه وإخوانه المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها إلى جانب الأصل المادى الذى يرجعه معهم إلى أبوة واحدة . فإنه حينئذ يشعر أنه يحيا بإخوانه ويحيا لهم ويحس كأنه غصن من أغصان شجرة عظيمة يحيا بحياتها ويموت بموتها [2] .

وإن رابطة العقيدة فى الإسلام – وهى رابطة فى مبادىء المثل العليا ، والقيم الرفيعة – من أقوى عوامل التقدم والازدهار . وتلك التعاليم هى أعلى وأقوى من رابطة الدم والنسب ، والمساكنة ، فى الوطن والمشاركة فى القومية .. وهذا

---

(١) البقرة : ١٧٧ .

(٢) المسلمون أمة واحدة ص ١٣ وزارة الأوقاف .

الأساس هو المنطلق الوحيد .. إلى صعيد اللقاء الإنسانى ، على أساس المبادئ . مبادئ الحق ، والعدل والخير .

وفى هذا الإطار التربوى النفسى ذاته ، عالج الإسلام النفس الإنسانية إعداداً لها لتحقيق التعارف والتعاون .. فعالج آفاتها وأمراضها الحائلة دون التعاون كالحقد والحسد والغل ، التى تثيرها دوافع النفعية للذات الفردية أو القبلية أو القومية [1] .

٣ - والأصل الثالث ، فى أصول الأخوة الإسلامية .. وحدة مصدر التشريع .. ومصدر التشريع واحد لدى المسلمين .. وهو القرآن الكريم ، كتاب الله ، الذى أنزله ليكون دستور الخالق فى إصلاح الخلق .. ينظم الحياة ، ويعالج النفوس ، ويقوم اعوجاج المجتمع .

والمسلمون إخوة بنص القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون** ﴾ [2] .

أخوة فى الدين والحرمة لا فى النسب [3] .

ولهذا قيل : أخوة الدين أثبت من أخوة النسب ، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة النسب . وأخوة الدين أحق وأجدر أن يهتم بها ، ويصلح ما بين المؤمنين . لأنها أخوة بنص كتاب الله

---

(١) استراتيجية العالم الإسلامى ص ٩٥ مكة المكرمة .

(٢) الحجرات : ١٠ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبى ج ١٦ ، ص ١٥٢٢ .

تعالى . والله سبحانه وتعالى هو الذى عقد هذه الأخوة وما عقده الله تبارك وتعالى لا تحله يد بشر ، مهما قويت ، وسطت ، وظلمت .

ومن عجيب أمر هذه الآية الكريمة ، أنها جاءت وكأنها قررت أمراً واقعاً مفروغاً منه ، لا يرد ولا يصد . فقالت : « **إنما المؤمنون أخوة** » هذا حكم الله .

وهكذا أخبر عن هذا العقد الذى ربطه فى السماء بين المؤمنين مهما اختلفت أجناسهم ، وتباينت لغاتهم ، وتباعدت أقطارهم وتناءت ديارهم فهم إخوة ، تجمعهم عقيدة خالدة ، ورسالة واحدة .

وهكذا جاءت الجملة خبرية ، تقرر واقعاً عظيماً وتخبر عنه . فقالت : « إنما المؤمنون إخوة » ولم تأت الجملة إنشائية إذ لو جاءت الآية إنشائية ، لكانت الأخوة غير موجودة .

ولكنه عز وجل ربط قلوب المؤمنين برباط واحد ، وعقد هذا الرباط ثم أخبر عن هذه الحقيقة الثابتة الواقعة ، وقضى فيها بحكمة فقال : « **إنما المؤمنون إخوة** » ثم ثنى بتقرير هذه الحقيقة رسول الله ﷺ حين قال : [**المسلم أخو المسلم أحب أو كره**] .. كما قال عليه الصلاة والسلام : [**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يعيبه ولا يتطاول عليه فى البنيان ، فيستر عنه الريح إلا بإذنه ، ولا يؤذه بقتار قدره**] .

وفى سنن أبى داود ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : [**المؤمن مـرآة المؤمن . المؤمن أخـو المؤمن ، يكف عنه ضيقه ويحوطه من ورائه**] .

وهكذا فهم الصحابة الكرام هذه الأخوة ، وعاشوا فيها ولها ، وأصبحوا بفضل الله تعالى إخواناً .. دعوتهم واحدة .. وأمرهم واحد .. تقاسموا الحب فيما بينهم وآثروا إخوانهم على أنفسهم . فقاسموهم الأموال ، ووصلوا إلى درجة من الإيثار ، أن يقول الصاحب لصاحبه ، هذا مالى جعلته بينى وبينك . وهاتان زوجتاى اختر أيتهما تشاء . لتتزوجها أنت [1] .

والأخوة فى الإسلام ، أسلوب تربوى وسلوك عملى ، يسمو بالمسلمين ، ويصل بهم إلى ذروة مراقى الفلاح والنصر .

وآثار الأخوة تبدو واضحة فى التعاون الذى قام بين المسلمين ، فجعل منهم أمة واحدة .. تخوض المعارك بإيمانها بالله وبنصر الله . وسوف يبقى المسلمون فى أشد الحاجة إلى الأخوة الإسلامية لأنها السياج الذى يقى المجتمع من التعثر والتبعثر .

والأمة الإسلامية تحتاج إلى الروابط المتكاملة فى الإخاء الإسلامى ، الذى لا يعرف ولا يعترف بالحزبية ، ولا بالعصبية ، ولا بالقومية ، ولا بالإقليمية ، ولا بالمذاهب الفكرية .

---

(١) نظرات فى سورة الحجرات ص ١٠٧ للشيخ الصواف ط : السعودية .

وقد أتم الله للمسلمين .. وحدة الأصل .. ووحدة العقيدة .. ووحدة المصدر ووحدة الشعور .. ووحدة الصف .. ووحدة العادات .. ووحدة العبادات . وكانت آثار ذلك واضحة سواء فى معارك بدر ، والقادسية ، واليرموك وحطين وعين جالوت ، والعاشر من رمضان وغير ذلك من معارك المسلمين التى خاضوها فى سبيل الله .

وسواء فى الحب فى الله ، والتعاون المثمر ، والتكامل ، والمساواة ، والعدل والشورى ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ومن منطلق الأخوة الإسلامية ، كانت أمتنا ومازالت تملك رصيداً ضخماً ، يمكن استثماره ، لتحقيق الإخاء الإسلامى العظيم والذى يجعلنا نحس بإخواننا المسلمين فى كل مكان .

المبحث الثالث : العالمية

العقيدة بالدين حاجة روحية ، ضرورية لصلاح البشر فلا يختص بها فريق من الناس ، دون باقى البشر ، لذلك كانت الحاجة ماسة إلى دين عالمى ، يكون دعوة إلى جميع شعوب الأرض قاطبة ، أبيضها وأسودها ، وأحمرها عربيها وعجميها . هكذا لابد أن يكون الدين عقيدة تصلح للبشر ، العامة منهم والخاصة ، يشعر كل منهم أن له عقيدة يطمئن إليها وأن هذه العقيدة رباطه بالدنيا والآخرة ، بالله وبالإنسان ، فالناس أمة واحدة فى هذا الدين الجديد ، هذا الدين هو دين البشر (١) .

والدين يكون عالمياً : بعدم اختصاصه بجنس من الأجناس البشرية ، وبعدم انحصار تطبيقه فى إقليم خاص ، أو بيئة معينة .

ويكون عالمياً بامتداد هدايته أزماناً طويلة تتجاوز العصر الذى بدأت فيه . بمعنى أن يكون الدين صالحاً لكل جنس ، وكل جيل ولكل زمان ومكان .

وبمعنى آخر : يكون الدين عالمياً : إذا كان شريعة الإسلام من حيث هو إنسان بقطع النظر عن العوامل والفوارق العارضة ، التى لا تدخل فى ماهية الإنسان كإنسان ، وبدون ذلك لا يتحقق معنى العالمية فى أى دين (٢) .

---

(١) محمد عزت الطهطاوى ، النصرانية والإسلام ، ص ٣٠٨ ، ط : مكتبة النور ، بالقاهرة ،سنة١٤٠٧هـ-١٩٨٧م .

(٢) عطية صقر ، الدين العالمى ومنهج الدعوة إليه ، ص ١٠ .

ونود أن نتعرف على الخصائص التى يجب أن يشتمل عليها الدين ليكون عالمياً وصالحاً لكل زمان ومكان . ونجمل هذه الخصائص فى ثلاث :

١ - وفاؤه بحاجة الإنسانية جميعاً ، فيما يصون وحدتها ويرعى إنسانيتها ويحمى أفرادها فى العاجل والآجل .

٢ - تشريعاته التى تضمن قيام الإنسانية كلها فى محيط واحد ، لا تنزع معه إلى عصبية دم ، أو اختلاف لون ، أو فرقة جنس .

٣ - اتساقه مع حقائق الكون ، وخصائص الوجود ، بحيث لا يتعارض مع ما يثبت من حقائق العلم ، أو يختلف مع منطق الفكر (١) .

وكذلك لا يكون عالمياً إلاّ إذا صحب الإنسان فى جميع أزمانه المتطورة ، وعصوره المتلاحقة ، أى : يكون خالداً ، لا يعتريه نسخ أو زوال ولا عقم ولا جمود ، موفياً بجميع مطالب الإنسان المتنوعة المتجددة فى كل الميادين التى يزاول فيها الإنسان بعقله الواسع نشاطه الكامل . ولا يوجد دين من الأديان السماوية فيه هذه المواصفات التى تجعله عالمياً ، إلا دين الإسلام (٢) .

---

(١) محمد عطية الراوى ، الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ، ص ٤٦ ، ط : الدار العربية، بيروت .

(٢) عطية صقر ، الدين العالمى ومنهج الدعوة إليه ، ص ١١ .

والعالمية من القيم التى تنبثق من عقيدة الإسلام ، لأن مجتمع الإسلام هو مجتمع الإنسانية كلها ، مجتمع ليس لجغرافيته حدود ، وليس للعنصرية فيه وجود [1] .

فالرسالة الإسلامية قد توجهت للناس كافة ، من جميع الأجناس والألوان ، وفى كل العصور .. وبالعالمية التى اتصف بها الإسلام ، يتميز عما سبقه من رسالات سماوية كانت تتوجه إلى أقوام بعينهم ، فى عصر معين [2] .

ولذلك نرى القرآن الكريم يتحدث عن أقوام بلغتهم رسالات سماوية ، وينسبهم القرآن إلى أنبيائهم ، كما فى الحديث عن قوم نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، وموسى ، وغيرهم من الأنبياء والرسل .

قال تعالى : ﴿ **لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ...** ﴾ [3] .

﴿ **وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ [4] .

---

(١) د . إبراهيم عوضين ، الإسلام والإنسان ، ص ٢٨١ ، ط : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ، سنة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٤م .

(٢) جمال الدين محمود ، أصول المجتمع الإسلامى ، ص ١٠ ، ط : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ، سنة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

(٣) الأعراف : ٥٩ .

(٤) الأعراف : ٦٥ .

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ... ﴾[1] .

﴿ ولوطاً إذ قال لقومه ... ﴾[2] .

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ... ﴾[3] .

﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه ﴾[4] .

وقال تعالى فى شأن عيسى – عليه السلام – : **﴿ ورسولاً إلى بنى إسرائيل .... ﴾**[5] .

فهذه النسبة هى التى تبين وتوضح أن الرسالة مخصوصة بهؤلاء القوم ، فقد أرسل الأنبياء بإصلاح أقوام ، أو مجتمعات بعينها ، وحققت هذه الرسالات أهدافها ، بتصحيح أصل العقيدة ، ومنهاج الحياة ، فيما يحتاج إلى إصلاح [6] .

وترى فى آيات القرآن الكريم أمثلة كثيرة للإصلاح فى العقيدة ، حينما يتوجه الأنبياء إلى من أرسلوا إليهم بالبعد عن الشرك ، وبعبادة الله وحده .

---

(١) الأعراف : ٧٣ .

(٢) الأعراف : ٨٠ .

(٣) الأعراف : ٨٥ .

(٤) الأعراف : ١٠٣ .

(٥) آل عمران : ٤٩ .

(٦) جمال الدين محمود ، أصول المجتمع الإسلامى ، ص ١٠، ١١ .

قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[1] .

كما نرى أن بعض الأنبياء توجه بجانب الدعوة إلى عبادة الله وحده بتوجيهات تتعلق بالسلوك أو المعاملات بين الناس ، مثل عدم ارتكاب الفاحشة : ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾[2] .

أما الإسلام : فهو يهدف إلى رسم إطار المنهاج الإلهى لحياة البشر فى كل زمان ومكان ، ولذلك غطى منهجه العقيدة ، والأخلاق ، والتشريع ، بطريقة تجعله لا يقف أمام الاختلافات العارضة والمؤقتة بين بنى الإنسان ، والتى لا صلة لها بفطرة الإنسان ، كما خلقه الله جسداً وروحاً ، وباستعداده الفطرى للاتجاه إلى الملأ الأعلى .

فلا يخفى أن الإنسان بحسب فطرته ينزع إلى البحث فيما وراء ذاته ، أو الموجودات التى تدركها حواسه ، وهى فطرة الإنسان التى يتساوى فيها الإنسان العالم فى المدينة ، مع الإنسان البدائى فى قلب الغابة .. واستجابة لهذا النزوع الذى لا يختص به إنسان دون آخر ، ولا جنس دون غيره ، فإن الله يقدم له العقيدة التى تستجيب لكافة تطلعاته ، حين يرتقى

---

(١) الأنبياء : ٢٥ .

(٢) الأعراف : ٨٠ .

الإنسان ، ويستشرف آفاقاً عالية فى علاقاته مع غيره [1] .

وإن الإنسان وهو يتابع عالمية الإسلام يلحظ بوضوح : أن العالمية فى الإسلام ، قد قامت على عناصر متكاملة :

أولاً : وحدانية الإله ، وإنكار تعدد الآلهة ، ومن هنا كان أساس الإيمان فى شريعة محمد ﷺ أن يؤمن بالله وحده لا شريك له . وتنزيهه عن كل صفة يتصف بها خلقه ..واقتضى هذا العنصر :

١- وحدانية الربوبية . فلا خالق ، ولا مدبر، ولا متصرف سواه .

٢- ووحدانية الألوهية . فلا معبود ، ولا مسئول ، ولا مستعان سواه . وبالوحدانية بشقيها دعا الإسلام [2] .

فالإيمان بالله معناه : إفراده - سبحانه وتعالى - بالألوهية ، والربوبية ، فلا شريك له فى الخلق ، ولا شريك له فى تصريف الأمور ، ولا يتدخل فى تصريفه للكون والحياة أحد ، ولا يرزق الناس معه أحد ، ولا ينفع أو يضر غيره أحد ، ولا يتم شىء فى هذا الوجود صغيراً أو كبيراً إلا بإذنه ورضاه [3] .

إذن هذا الإيمان الذى جاء به الإسلام : هو الإيمان الشامل الذى يليق بهذه الأمة الوارثة لدين الله ، القائمة على دعوته فى الأرض إلى يوم القيامة الضاربة الجذور فى أعماق الزمان ،

---

(١) جمال الدين محمود ، أصول المجتمع الإسلامى ، ص ١٠، ١١ .

(٢) محمد الطهطاوى ، النصرانية والإسلام ، ص ٣١١-٣١٢ بتصرف .

(٣) سيد قطب ، فى ظلال القرآن ، ج ١ ، ص ٢٤٠ - ٢٤١ بتصرف .

السائرة فى موكب الدعوة ، وموكب الرسول ﷺ وموكب الإيمان الممتد فى شعاب التاريخ البشرى ، الإيمان الذى يتمثل البشرية كلها منذ نشأتها إلى نهايتها [1] .

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ [2] .

ثانياً : الإيمان بكتب الله المنزلة على الأنبياء ، سواء منها ما أنزل على محمد ﷺ أو ما أنزل على إخوانه الأنبياء السابقين، لأن هذا الإيمان عنصر من عناصر الإسلام ، لا يتحقق إلا به [3] .

قال تعالى : ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير** ﴾ [4] .

---

(١) سيد قطب ، فى ظلال القرآن ، ج ١ ، ص ٣٤٠ - ٣٤١ بتصرف .

(٢) البقرة : ٢١-٢٢ .

(٣) محمد الطهطاوى ، النصرانية والإسلام ، ص ٣١٨ .

(٤) البقرة : ٢٨٥ .

فالإيمان بالله يقتضى الاعتقاد بصحة كل ما جاء من عند الله - عز وجل -[1] .

ثالثاً : الإيمان بجميع الرسل الذين أرسلهم الله إلى عباده ، من لدن آدم - عليه السلام - إلى محمد ﷺ لأن الله اصطفاهم من عباده وحملهم رسالته عن طريق ملائكته .

قال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ...** ﴾[3] .

فالإيمان بالله - سبحانه وتعالى - يقتضى صدق كل الرسل الذين يبعثهم الله ، ويقتضى الإيمان بوحدة الأصل ، الذى تقوم عليه رسالاتهم وتتضمنه الكتب التى نزلت عليهم ومن ثم لا تقوم التفرقة بين الرسل فى ضمير المسلم ، فكلهم جاء من عند الله بالإسلام فى صورة من صوره المناسبة لحال القوم

---

(١) سيد قطب ، فى ظلال القرآن ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .

(٢) النحل : ٤٣ .

(٣) الشورى : ١٣ .

الذين أرسل إليهم ، حتى انتهى الأمر إلى خاتم النبيين محمد ﷺ فجاء بالصورة الأخيرة للدين الواحد ، لدعوة البشرية كلها إلى يوم القيامة [1].

فالإيمان بوحدانية الله ، والإيمان بكتبه ، ورسله ، عناصر رئيسية فى العالمية التى جاء بها الإسلام .. ولكن ألا ترى معنا : أن عالمية الإسلام قضية لابد لها من أدلة تدعمها ، وشواهد تثبتها ، ولهذا سأحاول أن أعرض هذه الأدلة لتكون علامات الكمال ، ومعالم الطريق فى عالمية الدين الإسلامى .

المجموعة الأولى : أدلة تعتمد على ما ورد فى كتاب الله ، وسنة نبيه محمد ﷺ من قوله وفعله . إذن هذه الأدلة تقوم على الكتاب والسنة .. وأدلة الكتاب : جاءت منها آيات مكية ، تدل على أن وصف العالمية لازم الدعوة الإسلامية من أيامها الأولى ، ومنذ أشرقت على الناس ، كما جاءت منها آيات مدنية تنبئ عن العالمية واستمراريتها .

ومن الآيات المكية قوله تعالى : ﴿ **وما هو إلا ذكر للعالمين** ﴾ [2].

وقوله تعالى : ﴿ **إن هو إلا ذكر للعالمين** ﴾ [3].

---

(١) سيد قطب ، فى ظلال القرآن ، ج ١ ، ص ٣٤٢ .

(٢) القلم : ٥٢ .

(٣) التكوير : ٢٧ .

وقوله تعالى : ﴿قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين * لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ﴾[2] .

ومعنى من كان حياً : كل من ثبتت له الحياة [3] . وهذه الآية تبين وظيفة القرآن : بأنه نزل على الرسول ﷺ لينذر به من به حياة [4] .

وقوله تعالى : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾[5] .

وقوله تعالى : ﴿ ... وأوحى إلىَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ... ﴾[6] .

---

(١) الأعراف : ١٥٨ . (٢) يس : ٦٩-٧٠ .

(٣) عطية صقر ، الدين العالمى ومنهج الدعوة إليه ، ص ١٨ .

(٤) سيد قطب ، فى ظلال القرآن ، ج ٥ ، ص ٢٩٧٥ .

(٥) الفرقان : ١ . (٦) الأنعام : ١٩ .

وقوله : « من بلغ » : عطف على المخاطبين من أهل مكة ، أى : لأنذركم به وأنذر كل من بلغه القرآن من العرب والعجم ، وقيل : من الثقلين ، وقيل : من بلغه القرآن إلى يوم القيامة [1].

وفى تفسير قوله تعالى : « ومن بلغ » : قول آخر ، وهو أن يكون بمعنى : احتلم وبلغ حد التكليف [2].

وقوله تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب

---

(١) الفخر الرازى، التفسير الكبير، ج ٦، ص١٨٨ .

(٢) المصدر السابق . ويقول سليمان بن عمر الشهير بالجمل فى تفسيره فى « ومن بلغ » ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه فى محل نصب عطفاً على المنصوب فى « لأنذركم » ، وتكون « من » موصولة ، والعائد عليها من صلتها محذوف ، أى : ولأنذر الذى بلغه القرآن .

والثانى : أن فى « بلغ » ضميراً مرفوعاً يعود على « من » ويكون المفعول وهو منصوب المحل - أيضاً - نسقاً على مفعول « لأنذركم » ، والتقدير ولأنذر الذى بلغ الحلم، فالعائد هنا مستقر فى الفعل .

والثالث : أن « من » مرفوعة المحل، نسقاً على الضمير المرفوع فى « لأنذركم » وجاز ذلك لأن الفصل بالمفعول والجار والمجرور أغنى عن تأكيده . والتقدير : لأنذركم به، ولينذركم الذى بلغه . الجمل، الفتوحات الإلهية، ج ١، ص ١٤ .

فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير ﴾[1] .

وأم القرى : هى مكة . وهى قلب الأرض ، بمنزلة الرأس من الجسد لسائر الدنيا [2] ومن حولها : أهل البدو والحضر[3] . ويشمل كل الناس غير المقيمين فيها فكل حى على وجه الأرض مقيم حول مكة ، فهى مركز الدائرة ، وقطرها ممتد بين كل نقطتين على المحيط العالمى [4] .

وقوله تعالى : **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾**[5] .

هذه معظم الآيات المكية التى جاء فيها التأكيد الواضح لعالمية الإسلام .

أما الآيات المدنية :

فقوله تعالى : **﴿ ... وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا ... ﴾**[6] .

وقوله تعالى : **﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾**[7] .

---

(١) الشورى : ٧ .

(٢) عبد القادر أحمد عطا ، لماذا بعث الرسول فى مكة ؟ ، ص ١٣ .

(٣) الفخر الرازى ، التفسير الكبير ، ج ١٤ ، ص ١٤٨ .

(٤) عطية صقر ، الدين العالمى ومنهج الدعوة إليه ، ص ١٩ .

(٥) الأنبياء : ١٠٧ .   (٦) آل عمران : ٢٠ .   (٧) آل عمران : ٨٥ .

وقوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ... ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾(٢) .

وإذا انتقلنا بعدما ذكرنا من آيات القرآن الكريم ، إلى السنة النبوية وجدناها الصدى المتجاوب مع آيات الله .

يقول رسول الله ﷺ : [كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود](٣) .

يقول رسول الله ﷺ : [إنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة](٤) .

وفى كتاب النبى ﷺ إلى جيفر وعياذ ابنى الجلندى ملكى عُمَان ، قوله : [فإنى رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين](٥) .

---

(١) آل عمران : ٦٤ . (٢) التوبة : ٣٣ .

(٣) رواه مسلم فى صحيحه بشرح النووى ، كتاب المساجد ج ٥ ، ص ٣ .

(٤) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى ، كتاب الصلاة ، باب جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ج ١ ، ص ٥٣٣ .

(٥) القسطلانى ، المواهب اللدنية ، ج ١ ، ص ٢٢٥ ، ط : البابى الحلبى بمصر .

وفى حديث البراء بن عازب - عند حفر الخندق - فى غزوة الأحزاب ، وقد اعترضت المسلمين صخرة ، وهم يحفرون ، جاء قولهم : فاشتكينا ذلك للنبى ﷺ فجاء وأخذ المعول فقال : **« بسم الله ، ثم ضربه فنشر ثلثها » . وفى رواية : فخرج نور أضاء ما بين لابتى المدينة ، وقال : « الله أكبر ، أعطيت مفاتيح الشام ، والله إنى لأرى قصورها الحمر الساعة من مكانى هذا » . قال : ثم ضرب الثانية ، فقال : « بسم الله » فقطع ثلثاً آخر ، فقال : « الله أكبر ، أعطيت مفاتيح فارس ، والله إنى لأبصر قصر المدائن الأبيض » . ثم ضرب ثالثة ، وقال : « بسم الله » فقطع الحجر وقال : الله أكبر « أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إنى لأبصر باب صنعاء »** (1) .

وعن عدى - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال له : [**ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى] . قلت : كنوز كسرى بن هرمز ؟ قال : « كنوز كسرى بن هرمز » . وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز]** (2) .

---

(1) رواه أحمد فى مسنده ، ج ٤ ، ص ٣٠٣ بنفس اللفظ ، ورواه النسائى فى سننه ، كتاب الجهاد ، غزوة الترك والحبشة ، ج ٦ ، ص ٤٢ ، مع اختلاف فى اللفظ .

(2) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة ج ٦ ، ص ٦١ .

وقال رسول الله ﷺ [**إنكم ستفتحون مصر وهى : أرض يسمى فيها القيراط ، فإذا فتحتموها ، فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحماً .. أو قال : ذمة وصهراً**][1].

وعن جابر - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ :

[**أعطيت خمساً ، لم يعطهن أحد من الأنبياء من قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجد وطهوراً ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس كافة**][2].

هذه الأحاديث وغيرها - مما جرى مجراها فى التبشير بالفتح ، ونشر دين الله ، تدل دلالة أكيدة ، لا لبس فيها ولا غموض ، على عالمية الدين الإسلامى ، وأنه سينشر فى هذه الأصقاع والأمصار التى أشارت إليها الأحاديث وغيرها .

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه ، كتاب فضائل الصحابة ، باب وصية النبى ﷺ ج ٤ ، ص ١٩٧٠ .

(٢) عطية صقر ، الدين العالمى ومنهج الدعوة إليه ، ص ٢٤-٢٥ .

المجموعة الثانية :

تقوم أدلتها على العوامل الأساسية ، إذ أن المقومات الأساسية الخالدة للإسلام : أنه قائم على العقل والبرهان ، وأن هناك - أصولاً أولية يتألف منها دستور علمى ، يوجه إلى ينابيع الحكمة ، وهى تنحصر فى هذه الكليات التى تفيد : دوام النظر ، والتفكير فى الوجود إجمالاً ، وفى الكائنات التى فيه تفصيلاً ، ودرس أحوال الأمم ، والاعتبار بها ، وتنور نواميس الاجتماع من خلالها ، والاستهداء بالأعلام المنصوبة فى الوجود لهداية السالكين إلى الحقائق الخالصة من الشوائب ، والتجرد من جميع الصيغ الوضعية ، ومن الهوى فى الحكم على الأشياء ، والاجتهاد فى تحصيل العلم حيث كان ، واعتبار الفضائل وسائل لبلوغ الكمال الذى قدره الخالق للإنسان فى هذا العالم ، واعتبار وحدة الإنسانية ، وأن الناس ما قسموا إلى أمم وشعوب وقبائل ، ليتخالفوا ويتناكروا ، وإنما ليتعارفوا ويتحابّوا .

ويضاف إلى ما سبق من عوامل أساسية كدليل على عالمية الإسلام : أن كلمة « الإسلام » لا تدل على اسم شخص بعينه ، أو أمة بعينها ، وإنما تدل على صفة مخصوصة يضمنها معنى الإسلام .

ويظهر من هذا الاسم : أنه ما عنى بإيجاد هذا الدين وتأسيسه رجل من الرجال ، وليس خاصاً بأمة معينة ، دون سائر الأمم ، وإنما غايته أن تتحلى الأرض جميعاً بصفة الإسلام ،

فكل من اتصف بهذه الصفة من غابر الناس وحاضرهم هو مسلم ، ويكون مسلماً كل من سيتحلى بها فى المستقبل (1) .

فالكلمة إذن بمدلولها وغايتها عامة شاملة ، تتسع لماضى الناس وحاضرهم ومستقبلهم ، كما اتسعت نبوات الأنبياء جميعاً ، ولم تتخذ صفة الانتساب لأحدهم دون الآخر .

والإسلام بلغة القرآن : ليس اسماً لدين خاص ، إنما هو اسم للدين المشترك الذى هتف به كل الأنبياء ، وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء (2) .

المجموعة الثالثة :

أدلة واقعية ، وهى كثيرة ، وكلها تشهد لعالمية الإسلام وأنه دين الإنسانية كلها .. وسنحاول أن نشير إلى الحقائق الواقعية التالية :

أولاً : كان من السابقين إلى الإسلام أبو بكر العربى ، وبلال الحبشى ، وسلمان الفارسى ، وصهيب الرومى .

---

(1) أبو على المودودى ، مبادىء الإسلام ، ص ٣-٤ ، ط : المكتب الإسلامى بيروت .
محمد الراوى ، الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ، ص ٧٥ .

(2) محمد الراوى ، الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ، ص ٧٥ .

وأبو بكر - رضى الله عنه - كان من رؤساء قريش فى الجاهلية محبباً فيهم ، مألفاً لهم وكان إليه الأشناق [1] فى الجاهلية . كان إذا حمل شيئاً صدقته قريش وأمضوا حمالته ، وحمالة من قام معه ، وإن احتملها غيره خذلوه ولم يصدقوه .

فلما جاء الإسلام سبق إليه ، وأسلم على يده جماعة لمحبتهم له ، وميلهم إليه [2] .

وأما بلال بن رباح : فقد اشتراه أبو بكر - رضى الله عنه - وأعتقه لله - عز وجل - ، وكان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يقول : أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا يعنى بلالاً .

وقال مجاهد : أول من أظهر الإسلام بمكة سبعة : رسول الله ﷺ ، وأبو بكر ، وخباب ، وصهيب ، وعمار ، وبلال ، وسمية أم عمار [3] .

وأما سلمان الفارسى : فأصله من فارس . وكان ببلاد فارس مجوسياً ، سادن النار [4] . فجاء إلى العرب فى قصة طويلة وأسلم .

---

(١) الأشناق : هى الديات ، ابن كثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ، ص ٣١٠ .

(٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ، ص ٣١٠ .

(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٥ ، ص ٤٨١ .

(٤) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٢ ، ص ٤١٧ .

وأما صهيب الرومى : فكان أبوه وعمه عاملين لكسرى على الأبلة [1] وكانت منازلهم على دجلة عند الموصل .

ويقال : إن صهيباً لما كبر وعقل هرب وقدم مكة ، فحالف ابن جدعان وأقام معه ، ولما بعث رسول الله ﷺ أسلم ، وكان من السابقين إلى الإسلام .

قال الواقدى : أسلم صهيب وعمار فى يوم واحد ، وكان إسلامهما بعد بضعة وثلاثين رجلاً [2] .

فماذا يعنى دخول الرومى ، والأفريقى ، والفارسى ، والعربى فى الإسلام ؟ يعنى وبكل تأكيد : أن الإسلام جاء للإنسانية كلها .

ثانياً : ومن الحقائق الواقعية فى التعامل الإسلامى الدال على عالمية الإسلام : « أنه نادى كل الناس » فكانت العقيدة المذهبية التى وضعها للإسلام ، والمبدأ العام الذى يحسن أن تسير عليه البشرية فى تطورها ، لتصل إلى غايته هو المعبر عنه فى قول الله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾ [3] * .

---

(١) هى : بلدة على شاطىء دجلة . (٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ، ص ٣٦-٣٩ .

(٣) الحجرات : ١٣ . * انظر : محمد المبارك ، الحج والتوعية الإسلامية ، ص ٩٦ ، ضمن كتاب (استراتيجية العالم الإسلامى) ط : وزارة الحج والأوقاف ، مكة المكرمة ، سنة ١٣٩١هـ-١٩٧١م .

والآية الكريمة - كما نرى - : خاطبت الناس (يا أيها الناس) أى : البشر جميعاً ، وتكرر استعمال هذه الكلمة الدالة على الجنس البشرى ، نحواً من أربعين ومائة مرة ، كثير منها ورد خطاباً عموماً كهذه الآية السابقة ، وكقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم .... ﴾[1] .

﴿يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً ...﴾[2].

﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾[3] .

وجاءت كلمة الناس فى معرض الحض على تقديم الخير للناس فى كثير من الآيات :

قال تعالى : ﴿ ... وقولوا للناس حسناً ... ﴾[4] .

﴿ ... والعافين عن الناس ... ﴾[5] .

﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ... ﴾[6] .

﴿ لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ... ﴾[7] .

---

(١) البقرة : ٢١ .

(٢) البقرة : ١٦٨ .

(٣) يونس : ٢٣ .

(٤) البقرة : ٨٣ .

(٥) آل عمران : ١٣٤ .

(٦) الشعراء : ١٨٣ .

(٧) النساء : ١١٤ .

﴿ ..وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ..﴾[1].

﴿ ... والفلك التى تجــرى فى البــحــر بما ينفع الناس ...﴾[2].

وكلمة الناس استعملت فى القرآن الكريم ، بمعنى : الجنس البشرى عموماً ، لا بمعنى المسلمين العرب ، أو العرب ، بدليل قوله تعالى فى الآيات الآتية مما لا يمكن حمله إلا على الناس عموماً .

﴿ ... إن الله لذو فضل على الناس ... ﴾[3].

﴿ يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس ..﴾[4].

﴿ ... وتلك الأيام نداولها بين الناس ... ﴾[5].

﴿ زين للناس حب الشهوات ... ﴾[6].

﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً..﴾[7].

إن استعمال هذه الألفاظ : (الناس) و (الإنسان) يرسخ معنى الإنسانية العام ، ووحدة الجنس البشرى ذلك أن القرآن

---

(1) النساء : 58 .
(2) البقرة : 164 .
(3) البقرة : 243 .
(4) البقرة : 189 .
(5) آل عمران : 140 .
(6) آل عمران : 14 .
(7) الأعراف : 158 .

الكريم ، لا يخاطب قومية معينة ، ولا شعباً معيناً ، بل يخاطب الإنسان بوجه عام [1].

فالإسلام - كما يفهم من النصوص القرآنية - جاء ليقيم رابطة الإنسانية القائمة على ارتباط البشر جميعاً بالله الخالق ، فهم جميعاً عباد الله لا ليجعل شعباً معيناً شعبه المختار .

والرسول الذى أمر بتبليغ الإسلام ، خوطب فى القرآن الكريم على هذا الأساس : (**قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ...**) . ولم يرسل ليكون هادياً إلى قومه وحدهم ، كما أرسل موسى هدى لبنى إسرائيل ، وكما أرسل عيسى - عليه السلام - إلى خراف بنى إسرائيل الضالة [2] .

إنما أرسل ليكون للناس أجمعين .

ثالثاً : ومن الحقائق الدالة على عالمية الإسلام : الكتب والرسائل التى بعث بها النبى ﷺ إلى ملوك الأمم ، يدعوهم فيها إلى الإسلام .

يقول ابن هشام : بعث رسول الله ﷺ رسلاً من أصحابه كتب معهم كتباً إلى الملوك ، يدعوهم فيها إلى الإسلام .

- فبعث دحية بن خليفة الكلبى إلى قصر ملك الروم .

---

(١) محمد المبارك ، الحج والتوعية الإسلامية ، ص ٩٧ ، ضمن كتاب (استراتيجية العالم الإسلامى) .

(٢) المصدر السابق ، ص ٩٩ .

- وبعث عبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى ملك الفرس .
- وبعث عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ملك الحبشة .
- وبعث حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس ملك الإسكندرية .

وأشار ابن هشام ، فى سيرة النبى ﷺ إلى كتبه ورسائل أخرى إلى ملوك عمان ، واليمامة ، والبحرين ، وتخوم الشام [1] .

ومن أمثلة هذه الكتب : ما أرسله النبى ﷺ إلى النجاشى ، إذ قال له : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد - رسول الله - إلى النجاشى ملك الحبشة .. أسلم أنت ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، الملك القدوس ، السلام المؤمن ، المهيمن . وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى ، خلقه الله من روحه ونفسه ، كما خلق آدم بيده . وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى ، فإنى رسول الله ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله - عز وجل - فقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتى والسلام على من اتبع الهدى » [2] .

---

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ٢١٧ ، باختصار شديد .

(٢) على الأحمدى ، مكاتيب الرسول ، ص ١٢١ ، الزيلعى ، نصب الراية لأحاديث الهداية ، ج ٤ ، ص ٤٢١ .

وفى هذه الرسالة دعوة ملك الحبشة إلى الإيمان بالإسلام ، والدخول فيه ، وكذلك الرسائل الأخرى ، توجهت بالدعوة إلى دين الإسلام ، ففى رسالة هرقل - عظيم الروم - قول الرسول - ﷺ - : فإنى أدعوك بدعوة الإسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين [1] .

وفى الرسالة المبعوثة إلى كسرى - ملك الفرس - : « أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس » [2] .

وكذلك تضمنت الرسالة المرسلة إلى المقوقس عظيم مصر : « فإنى أدعوك للإسلام ، فأسلم تسلم ، وإن يسلم قومك يؤتك الله أجرك مرتين » [3] .

فكتب الرسول ﷺ تؤكد الدعوة الإسلامية التى جاءت للناس أجمعين .

والباحث فى عالمية الدين الإسلامى : يجد أن هذه العالمية نطقت بها آيات القرآن الكريم ، وجاءت بها السنة النبوية ،

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه ، كتاب بدء الوحى ، ج ١ ، ص ٣٢ . وفى كتاب الجهاد ، ج ٦ ، ص ١٠٩ .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى ، كتاب الجهاد ، باب دعوة اليهود والنصارى ، وعلى ما يقاتلون عليه ، وما كتب ﷺ إلى كسرى وقيصر ، والدعوة قبل القتال ، ج ٦ . ص ١٠٨ .

(٣) رواه الزيلعى ، فى نصب الراية ج٤ ، ص ٤٢١ .

وأكدها واقع الدعوة الإسلامية من سرايا ، وغزوات وفتوح ، واستقبال للوفود ، وكتب للملوك فى العالم .

والأدلة على عالمية الإسلام أكثر من أن تذكر ، وتتجلى فى الإسلام وأحكامه وتشريعه ، وأخلاقه ، وفضائله ، وكل ومضة من ومضاته ، وإشراقة من إشراقاته .



المبحث الرابع : الاستمرارية

كان من السمات البارزة للدين الإسلامى :أنه جاء لكل الناس ، وقد أكد ذلك الواقع الذى عاشته الدعوة الإسلامية فى بدايتها ومسيرتها فى الحياة ، فأثبتت الدعوة إلى الإسلام : أن الإسلام للناس أجمعين ، ومن ثم كانت العالمية مصدراً من مصادر القوة فى الأمة الإسلامية .

وإذا كنا قد عرضنا للعالمية - فيما سبق - فإن الأمر يقتضى أن نتعرف على الاستمرارية لأنها مصدر من مصادر القوة التى دفعت الناس إلى التعرف على هذا الدين ، والدخول فيه .

والاستمرارية تفيد خلود الإسلام ، واستمرار بقائه ، وامتداد رسالته ، مادامت البشرية تواصل حياتها على هذا الكوكب ، وقد شاء الله - سبحانه وتعالى - أن يكون هذا الدين الذى يلازم البشرية فى مسيرتها ، ويستوعب مظاهر التجدد والنمو فى حياتها ، هو دين الإسلام ، لأنه الدين المؤهل لإنارة الطريق أمام الإنسان وقيادته نحو الخير والصلاح .

والآية الكريمة التى اعتبرت الدين عند الله هو الإسلام :

﴿ إن الدين عند الله الإسلام ... ﴾[1] . تعنى مجموعة المبادىء الإسلامية ، وتعاليم الإسلام .

---

(١) آل عمران : ١٩ .

فالإسلام مر بمراحل كثيرة ، عبر أنبياء الله ورسله ، إلى أن انتهى إلى المرحلة التكاملية فى رسالة محمد ﷺ التى جاءت إلى الإنسانية كلها [1] .

فالإسلام يشتمل على امتداد زمانى فى المعتقد الدينى ، يعرض لقضية البشرية من نشأتها إلى غايتها .

ويشتمل على شمول موضوعى يغطى مجالات الحياة جميعاً. ويشتمل - أيضاً - على شمول يضم الأديان كلها ، ويدعوها إلى تصحيح معتقداتها والانخراط فى سلك الذين أسلموا لله .

وهذا الطابع الشمولى هو الذى جعل من الإسلام الصيغة الوحيدة الباقية المستمرة أبد الدهر [2] .

ولقد كان الإسلام فى صورته التى بلغها محمد رسول الله ﷺ هو الدين الذى ارتضاه الله - سبحانه وتعالى - ديناً أبدياً ، وكما أن كل شىء مرده فى النهاية إلى إرادة الله - سبحانه وتعالى - واختياره ، فيجب أن نعلم أن اختيار الله لهذا الدين ، واصطفاه لرسوله قد كان بالحق .

﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ [3] .

---

(١) د . أحمد السايح ، أضواء على الحضارة الإسلامية ، ص ١٤٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤٤ ، ١٤٦ .

(٣) الصف : ٩ .

﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ... ﴾[1] . يظهر ذلك فى طابع هذه الرسالة وخصائصها ، التى تنطق فى جملتها وتفصيلها بأنها خاتمة الرسالات وأنها لذلك أبدية ، لا تنسخها شريعة أخرى إلى قيام الساعة [2] .

ولذلك كانت تعاليم رسالة الإسلام ، لا تغيب عن الناس ، ولن تغيب وسوف تبقى ثابتة ، وكل الشواهد تدل على ذلك :

فهى أولاً : مجموعة من الحقائق فى العقيدة ، والشريعة ، والأخلاق ، لا تتغير مهما تغير المكان ، أو تغير الزمان ، وما هو ثابت فى نفسه ، يستوى فى ضرورة العلم به أن يكون عند بدء الخلق وعند قيام الساعة .

وهى ثانياً : مسجلة فى القرآن الكريم ، الذى نقله جبريل - عليه السلام - عن الله بأمانة تامة ، ونقله كذلك محمد ﷺ عن جبريل ونقله الصحابة - رضوان الله عليهم - من رسولهم ، ثم تتابعت الجماهير الغفيرة تنقله عبر القرون ، حتى بلغت به إلينا ، مثلما نزل قبل أربعة عشر قرناً وسنورثه نحن - بإذن الله تعالى - غيرنا ، وهكذا إلى يوم القيامة .

---

(١) المائدة : ٤٨ .

(٢) د . عبد الفتاح بركة ، الرسول الكريم خاتم النبيين ، ص ٤٣ .

وهي ثالثاً : واقعية ، بمعنى أنها تعايش الإنسان ، وتقدم له الحلول العلمية والعملية لمعاشه وسعادته ، وتحيط به في النواحي التي يتجه إليها ، وبذلك تحقق لدى - الناس تذكراً دائماً(١) .

واستمرارية الإسلام تشهد لها آيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول ﷺ ومن ذلك :

قوله تعالى : ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً** ﴾(٢) .

يقول ابن كثير : « فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده ، وإذا كان لا نبي بعده ، فلا رسول بطريق الأولى والأحرى ، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة فإن كل رسول نبي ولا ينعكس »(٣) .

ثم إنه - سبحانه وتعالى ، أكد ذلك بقوله : (وخاتم النبيين) أي : هو آخر نبي بعثناه في العالم ، ولن يأتي بعده نبي ، فضلاً عن أن يأتي رسول (٤) .

---

(١) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص٢٠٨ . (٢) الأحزاب : ٤٠ .

(٣) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج٦ ، ص ٤٢٣ .

(٤) أبو الأعلى المودودي ، ختم النبوة في ضوء القرآن والسنة ، ص ٦ ، ترجمة خليل أحمد الحامدي ، طبع ونشر : مكتبة الرشد بالرياض ، سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

وقال تعالى : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾[1] .

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : **[إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ، كمثل رجل بنى بنياناً ، فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة فأنا هذه اللبنة ، وأنا خاتم النبيين]**[2] .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : **[فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض طهوراً ومسجداً ، وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بى النبيون]**[3] .

وعن أنس بن مالك - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ **[إن الرسالة والنبوة قد انقطعت ، فلا رسول بعدى ، ولا نبى ، قال : فشق ذلك على الناس . قال :**

---

(١) الحجر : ٩ .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه ، كتاب الفضائل ، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين ج ٤ ، ص ١٧٩١ .

(٣) رواه مسلم فى صحيحه ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ج ١ ، ص ٣٧١ .

قال : ولكن المبشرات] .

قالوا يا رسول الله : وما المبشرات ؟ قال : [**رؤيا الرجل المسلم ، وهى جزء من أجزاء النبوة]**[1] .

والإمام ابن كثير – بعد أن أورد كثيراً من الأحاديث النبوية التى جاءت فى ختم النبوة – يقول : « **والأحاديث فى هذا كثيرة ، فمن رحمة الله بالعباد : إرسال محمد – صلوات الله وسلامه عليه – إليهم ، ثم من تشريفه له ، ختم الأنبياء والمرسلين به ، وإكمال الدين الحنيف له ، وقد أخبر – تعالى – فى كتابه ، ورسله فى السنة المتواترة عنه : أنه لا نبى بعده** »[2] .

ولقد نجد معنا هذا الختم يتغلغل فى كل نواحى الرسالة الإسلامية ، حتى أنه لا يستقيم فهمها إلا فى ضوء هذا المعنى . وآيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول ﷺ كثرة كاثرة ، من التصريحات والتنبيهات والإشارات تؤكد أن الإسلام خاتم الأديان السماوية ، وأن محمداً رسول الله ﷺ خاتم النبيين والمرسلين [3] .

---

(١) رواه أحمد فى مسنده ، ج ٣ ، ص ٢٦٧ ورواه الترمذى فى صحيحه باب ذهبت النبوة ، وبقيت المبشرات ، ج ٩ ص ١٢٦ .

(٢) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج ٦ ، ص ٤٢٥ .

(٣) د . عبد الفتاح بركة ، الرسول الكريم ، ص ٦-٧ بتصرف .

ومن هنا كانت تعاليم الإسلام لن تقصر عن البشر ، مهما وصل مستواه ، لأن تعاليم الإسلام اتجهت لسائر الدعوات السابقة وصدقتها ، وكملت بما يناسب الرقى الإنسانى .

فقد راعت تعاليم الإسلام فى هيمنتها : الارتقاء العقلى للإنسانية ، فدعت إلى وحدانية مطلقة لله فى الذات والصفات والأفعال ، واجتثت الوثنية بأشكالها وألفاظها ، وتأثيراتها السيئة على الأفراد وعلى الجماعات ، بحيث لا يخضع الإنسان إلا لخالقه ، ولا يعبد إلا الله - سبحانه وتعالى - .

وأيقظت هذه التعاليم العقل من نومه ، فعابت على المقلدين ، والأتباع الذين كان شعارهم: ﴿ ... **إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون** ﴾[1] .

وأمرت بالنظر والتدبر ، ووجهت الإنسان إلى الآيات والبراهين ﴿ ...**لقوم يعقلون**﴾[2]. ﴿ ...**لعلهم يتفكرون**﴾[3].

---

(١) سورة الزخرف ، آية : ٢٣ ، وفى سورة الزخرف ، أيضاً : ٢٢ يقول فيها رب العزة : ﴿ **بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون** ﴾.

(٢) البقرة : ١٦٤ ، ومادة (عقل) تكررت فى القرآن الكريم فى أكثر من أربعين موضعاً ، محمد فؤاد ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص ٤٦٨-٤٦٩ .

(٣) الحشر : ٢١ ، ومادة (فكر تكررت فى القرآن الكريم فى أكثر من ثمان عشرة مرة . محمد فؤاد ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص ٥٢٥ .

وأتى الإسلام فى كل مجال بتوجيه رائع ، وإصلاح سليم ، ولم يترك مشكلة إلا أزالها ولا عقدة إلا حلها ، ولا خطأ إلا أصلحه [(١)] .

يقول محمد عبده : « لم يدع الإسلام أصلاً من أصول الفضائل إلا أتى به ، ولا أماً من أمهات الصالحات إلا أحياها ، ولا قاعدة من قواعد النظام إلا قررها ، فاستجمع للإنسان عند بلوغ رشده حرية الفكر ، واستقلال العقل ، وما به صلاح السجايا ، واستقامة الطبع ، وما فيه إنهاض العزائم إلى العمل ، وسوقها فى سبل السعى ومن يتل القرآن حق تلاوته ، يجد فيه من ذلك كنزاً لا ينفد ، وذخيرة لا تفنى ... هل بعد الرشد وصاية ؟ وبعد اكتمال العقل ولاية ؟ ... كلا قد تبين الرشد من الغى ، ولم يبق إلا اتباع الهدى ، والانتفاع بما ساقته أيدى الرحمة ، لبلوغ الغاية من السعادتين ، لهذا اختتمت النبوات بنبوة محمد ﷺ وانتهت الرسالات برسالته » [(٢)] .

وهناك أحاديث جاءت عن النبى ﷺ تعرض لاستمرارية الإسلام ، حتى تقوم الساعة ... روى المغيرة بن شعبة عن النبى ﷺ قال : **[لا يزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون]** [(٣)] .

---

(١) د. أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص٢٠٩ بتصرف. (٢) محمد عبده ، رسالة التوحيد ، ص٢٣٧-٢٣٨ .

(٣) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى ، كتاب الصيام ، باب لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، ج١٣ ، ص٢٩٣ .

وروى معاوية بن أبى سفيان - رضى الله عنهما - وهو يخطب ، قال : سمعت النبى ﷺ يقول : [**من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ، وإنما أنا قاسم ، والله - عز وجل - يعطى ، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيماً ، حتى تقوم الساعة أو حتى يأتى أمر الله**][1].

وروى مسلم مثل ذلك عن جابر بن سمرة ، وعن جابر بن عبدالله ، كما روى عن عقبة بن عامر ، قوله : وأما أنا : فسمعت رسول الله ﷺ يقول : [**لا تزال عصابة من أمتى يقاتلون على أمر الله ، قاهرين لعدوهم ، لا يضرهم من خالفهم ، حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك**][2].

وروى أبو أمامة الباهلى من خطبة رسول الله ﷺ وتحذيره من الدجال أنه قال : [**وأنا آخر الأنبياء ، وأنتم آخر الأمم**][3].

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق وهم أهل العلم ، ج١٣ ، ص ٢٩٣ .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه ، كتاب الإمارة ، باب قوله ﷺ : لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ، ج ٣ ، ص ١٥٢٥ .

(٣) رواه ابن ماجة فى سننه ، أبواب الفتن ، ج ٢ ، ص ٣٩٩ .

فهذه الأحاديث النبوية : تعرب فى وضوح عن استمرارية الإسلام وصلاحيته إلى أن تقوم الساعة ، وما دامت أمته ﷺ آخر الأمم ، فإنه لا يوجد بعده نبى آخر ، حتى لا تكون أمة بعد أمته .

وقد سبق لنا ونحن نعرض (عالمية الإسلام) : أن عرفنا أن من أقرب الدلائل على عالمية الإسلام ، نداء القرآن الكريم الإنسان : (يا أيها الناس) فى كثير من الآيات . وهذه الدلائل تفيد فى الوقت نفسه : استمرارية الإسلام الذى جاء لإصلاح حال الإنسان فى الأرض .

كما أن من الأدلة الضرورية على استمرارية الإسلام : أن ختم النبوة يقتضى بقاء الشريعة ، وعلى ذلك فالشريعة الإسلامية باقية بقاء الإنسان ، لأنه لا ينتظر نبى آخر ، يمكن معه انتظار شريعة أخرى ، فلم يكن بد مادامت النبوة قد ختمت أن تكون شريعتها الخاتمة ، هى : المنهاج الذى يصلح لكل زمان ومكان ، وألا يحتمل النسخ ولا التبديل ، ومهما تتجدد الحوادث ، وتظهر المسائل والمشاكل فلابد أن يجد الناس فى هذه الشريعة هدايتهم .

فالله - سبحانه وتعالى - جعل الشريعة الإسلامية خاتمة الشرائع وجعلها فى متناول الجميع إلى يوم القيامة ، وجعلها هداية كاملة مكتملة ، لا تقبل تغييراً ولا تبديلاً ، لا فى مجموعها ، ولا فى باب من أبوابها .

المبحث الخامس : الشمولية

* لقد اتسم الإسلام باعتباره دين الحياة ، وشريعته شريعة الزمان كله ، والأجيال كلها ، اتسم بالإحاطة والاستيعاب والشمول . لم تند عنه من حياة الناس أو مشكلاتهم أو أقضيتهم ، شاردة أو واردة ، صغيرة أو كبيرة ، سواء في ذلك بداوتهم أو حضارتهم ، وتقدمهم مع يسر الحياة أو تعقدها ، إذ احتوت نصوصه من صور المرونة والحيوية ، ما أتاح للناس بها حرية الحركة وبسرعة التكيف ، ويسر الأداء ، ومنحهم من أجل ذلك القرآن والسنة ، منها ينطلقون ، وفي ظلالها يسيرون ، وفي نورها يهتدون ويستنيرون .

* ومن هنا كان الشمول من الخصائص التي تميز بها الإسلام ، عن كل ما عرفه الناس ، من الأديان ، والفلسفات ، والمذاهب بكل ما تتضمنه كلمة الشمول من معانٍ وأبعاد [1] .

* فالإسلام نظام شامل لكافة شئون الحياة ، وسلوك الإنسان ، وهذا الوصف للإسلام وصف حقيقي ثابت للإسلام ، لا يجوز تجريده منه ، إلا بالافتراء عليه حقداً وكراهية ، أو بسبب الجهل به وشمول الإسلام هذا لشئون الحياة ، وسلوك الإنسان لا يقبل الاستثناء ولا التخصيص [2] . فالتصور الإسلامي لتكوين الإنسان تصور واقعي ، يتطابق مع طبيعة هذا المخلوق ، لأن

---

(١) د . يوسف القرضاوي : الخصائص العامة للإسلام ، ص ٩٩ .

(٢) د . عبد الكريم زيدان : أصول الدعوة ، ص ٤٩/ط : دار عمر بن الخطاب بالإسكندرية سنة ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

مصدر هذا التصور هو الخالق الذى خلق ، ويعلم من خلق .

* وإذا قيل : إن الإنسان يتكون فى إجمال من البدن الذى يمثل الجانب المادى ، والقلب الذى يمثل الجانب الروحى ، والعقل الذى يمثل الجانب الفكرى ، فإن التصور الإسلامى لهذا التكوين يتميز عن غيره من المذاهب الفاسدة ، والديانات المنحرفة فى جانبين :

الجانب الأول :

عطاء الإسلام لهذه العناصر فى نموها وإشباعها .

الجانب الثانى :

تحقيق التوازن فى نمو هذه العناصر نمواً منتظماً متكاملاً ، لا يطغى فيه جانب على آخر [(١)] .

* فالنظرة العامة للتصور الإسلامى تحقق هذا التوازن ، الذى يصلح لعامة الناس ولخواصهم فيجمعون بين القلوب التقية ، والأبدان القوية ، والعقول الذكية [(٢)] .

* ولكى نقيم الحجة على شمول الإسلام ، فيما تناوله من شئون الحياة ، وشموله فى عطائه للإنسان ، نتناول مظاهر الشمول فيما يأتى :

---

(١) د . محمود رأفت سعيد : التوازن فى التصور الإسلامى ، ص ٨-٩ بتصرف واختصار ، ط : دار الهداية بالمنصورة سنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٥ .

أولاً : شمول العقيدة الإسلامية :

* وذلك أن العقيدة الإسلامية ، عقيدة شاملة ، من أى جانب ينظر الإنسان إليها ، لقد جاء الإسلام من جوف الصحراء العربية ، بأسمى عقيدة فى الإله الواحد الأحد ، صححت فكرة الفلسفة النظرية ، كما صححت فكرة العقائد الدينية ، فكان تصحيحه لكل من هاتين الفكرتين - فى جانب النقض منها - أعظم المعجزات التى أثبتت فى حكم العقل المنصف ، والبديهة الصادقة ، أنه وحى من عند الله [(١)] .

* ومن ثم - كما يقول العقاد : كانت هذه العقيدة الإلهية فى الإسلام مصححة لكل عقيدة سبقتها فى مذاهب الديانات ، أو مذاهب الفلسفة ، ومباحث الربوبية .

* فهى عقيدة كاملة ، صححت المعتقدات فى (الكارما والنرفانا) باعتبار أنها عقيدة فى خواء أو فناء مسلوب الذات ، لا تجاوب بينه وبين أبناء الحياة .

* وهى عقيدة كاملة ، صححت عقيدة المعلم الأول بين فلاسفة الغرب الأقدمين لأنه كان على خطأ فى فهم التجريد والتنزيه ، ساقه هذا الخطأ إلى القول بكمال مطلق ، كالعدم المطلق فى التجرد من العمل ، والتجرد من الإرادة ، والتجرد من الروح .

---

(١) العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ج ٥ ، ص ٤٠ ، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد .

* ودين يصحح العقائد الإلهية فيما سبقه من ديانات الأمم وحضاراتها ومذاهب فلاسفتها [1] .

* وما كان الشمول فى العقيدة الإسلامية ليذهب فيها مذهباً أبعد وأوسع من خطاب الإنسان روحاً وجسداً وعقلاً وضميراً ، بغير بخس ولا إفراط فى ملكة من هذه الملكات [2] .

* والعقيدة الإسلامية توصف بالشمول ، لأنها تفسر كل القضايا الكبرى فى هذا الوجود . القضايا التى شغلت الفكر الإنسانى ، ولا تزال تشغله وتلح عليه بالسؤال ، وتتطلب الجواب الحاسم ، الذى يخرج الإنسان من الضياع والشك والحيرة ، وينتشله من متاهات النحل المتضاربة ، قديماً وحديثاً ، فإذا كانت بعض العقائد تعنى بقضية الإنسان دون قضية الألوهية والتوحيد ، أو بقضية الألوهية دون قضية النبوة والرسالة ، أو بقضية النبوة دون قضية الجزاء الأخروى فإن عقيدة الإسلام قد عنيت بهذه القضايا كلها ، وقالت كلمتها فيها ، بشمول واضح ووضوح شامل [3] .

* ولهذا جاءت تشريعات الإسلام لجميع الناس ، ولكافة مراحل تطور الإنسان من الميلاد إلى الوفاة ، وبذلك تشمل كيان الفرد كله ، والمجتمع بأسره ، والناظر فى تشريعات الدعوة الإسلامية ،

---

(١) المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٦٠-٦١ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٣٢ .

(٣) د . يوسف القرضاوى ، الخصائص العامة للإسلام ، ص ١٠٦ .

يرى أنها كانت مع الإنسان ، جنيناً فى بطن أمه ، وبعد مولده ، وفى شبابه ، ورجولته ، وتسايره هكذا فى أطواره المختلفة ، حتى يأتيه أجله (١) .

* وتتمثل خاصية الشمول التى يتسم بها الإسلام فى رد هذا الوجود كله بنشأته ابتداء ، وحركته بعد نشأته ، وكل انبثاقه فيه ، وكل تحور ، وكل تغير ، وكل تطور ، والهيمنة عليه وتدبيره وتصريفه ، إلى إرادة الذات الإلهية السرمدية ، الأزلية الأبدية المطلقة (٢) .

* وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول ، لأنها عقيدة لا تقبل التجزئة ، ولابد أن تؤخذ كلها بكل محتوياتها دون إنكار (٣) .

* وشمول العقيدة الإسلامية ، هو الذى حقق للإسلام ما لم يتحقق لعقيدة أخرى ، من تحويل الأمم العريقة التى تدين بالكتب المقدسة إلى الإيمان به عن طواعية واختيار ، كما أمنت به الأمم المسيحية والمجوسية ، والبرهمية فى مصر وسوريا ، وفارس ، والهند ، والصين .

---

(١) د . أحمد غلوش ، الدعوة الإسلامية ، ص ٢٠ .

(٢) سيد قطب خصائص التصور الإسلامى ، ص ٩٢ ، ط : دار الشروق ، سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م

(٣) د . يوسف القرضاوى ، الخصائص العامة للإسلام ، ص ١٠٨ .

* إن شمول العقيدة الإسلامية ، هو العامل القوى الذى يجمع إليها النفوس ، ويحفظ لها قوة الإيمان [1] .

ثانياً : شمول العبادة فى الإسلام :

وتتمثل ظاهرة الشمول الإسلامى فى عباداته كما تمثلت فى عقيدته ، فالعبادة فى الإسلام تستوعب الكيان البشرى كله ، فالمسلم لا يعبد الله بلسانه فحسب ، أو ببدنه فقط ، أو بقلبه لا غير ، أو بعقله مجرداً ، أو بحواسه وحدها ، بل يعبد الله بهذه كلها ، بلسانه ذاكراً ، داعياً ، تالياً ، وببدنه مصلياً مجاهداً ، وبقلبه خائفاً ، راجياً ، محباً ، متوكلاً ، وبعقله متفكراً ، متأملاً وبحواسه كلها مستعملاً لها فى طاعته - سبحانه وتعالى - [2] قال تعالى : **﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾** [3] .

وإن هذا النص القرآنى الكريم - كما يقول سيد قطب - : ليحتوى حقيقة ضخمة هائلة . ومن جوانب هذه الحقيقة : أن مدلول العبادة لابد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة

---

(١) العقاد ، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، ص ٢٦ .

(٢) د . يوسف القرضاوى ، الخصائص العامة للإسلام ، ص ١٠٨-١٠٩ .

(٣) الذاريات : ٥٦-٥٨ .

الشعائر ، ونحن نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان ، نعرفها من القرآن الكريم ، من قول الله - سبحانه وتعالى - **﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة .... ﴾**(١) .

فالخلافة فى الأرض عمل هذا الكائن الإنسانى ، وهى تقتضى ألواناً من النشاط الحيوى ، من أجل عمارة الأرض ، والتعرف على قواها وطاقاتها وذخائرها ومكنوناتها ، وتحقيق الإرادة الإلهية فى استخدامها وتنميتها ، وترقية الحياة فيها .

كما تقتضى الخلافة : القيام على شريعة الله فى الأرض ، لتحقيق المنهج الإلهى الذى يتناسق مع السنن الكونية ، ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة - التى هى غاية الوجود الإنسانى أو التى هى وظيفة الإنسان الأولى - أوسع وأشمل من مجرد الشعائر ، وأن وظيفة الخلافة داخلة فى مدلول العبادة قطعاً (٢) .

وإذا كانت العبادة غاية الوجود الإنسانى كما هى : غاية كل وجود ، فإن مفهومها لا يقتصر على المعنى الخاص الذى يرد إلى الذهن ، والذى يضيق نطاقها حتى يجعلها محصورة بأنواع الشعائر الخاصة ، التى يؤديها المؤمن .

---

(١) البقرة : ٣٠ .

(٢) سيد قطب ، فى ظلال القرآن ، ج ٦ ، ص ٣٣٨٦-٣٣٨٧ بتصرف واختصار .

والعبادة بمعناها العام : تعنى السير فى الحياة ابتغاء رضوان الله - سبحانه وتعالى - وفق شريعته الغراء [1] .

والعبودية - كما بينها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله - تشمل كل ما يحب الله ويرضى من الأقوال والأفعال [2] .

ولقب العبادة : يطلق على كل عمل تتحقق فيه الشروط الآتية :

١ - أن يكون العمل نافعاً ومفيداً ، وصالحاً فى الحياة .

٢ - أن يراد بهذا العمل وجه الله - سبحانه وتعالى - لارتباط الأعمال بالنيات [**إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى**][3] .

٣ - أن يؤدى العمل بلا مخالفات شرعية [**فكل عمل ليس عليه أمرنا فهو ردّ**][4] .

---

(١) د . عبد الكريم عثمان ، معالم الثقافة الإسلامية ، ص١٤٨ .

(٢) ابن تيمية ، رسالة العبودية ، ص ٤ ، ابن تيمية ، الفتاوى ، ج ١٠ ، ص ١٤٩ .

(٣) رواه البخارى فى صحيحه ، كتاب الوحى ، باب كيف كان الوحى إلى رسول الله ﷺ ج ١ ، ص ٩ .

(٤) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى ، كتاب البيوع باب النجش .

فإذا تحققت هذه الشروط فى أى عمل ، نستطيع وبكل اطمئنان : أن نلقبه بالعبادة ، وأنه مما يحب الله ويرضى ، وأنه فى سبيل الله [1] .

والغرض من العبادات - كما يذكر العقاد - : تنبيه المتدين إلى حقيقتين ، لا ينساهما الإنسان فى حياته العامة أو الخاصة :

الحقيقة الأولى :

التى يراد من العبادة المثلى أن تنبه إليها ضمير الإنسان على الدوام - هى : وجوده الروحى ، الذى ينبغى أن يشغله على الدوام بمطالب غير مطالبه الجسدية ، وغير شهواته الحيوانية .

الحقيقة الثانية :

التى يراد من العبادة المثلى أن تنبه إليها ضميره - هى : الوجود الخالد الباقى ، إلى جانب وجوده الزائل المحدود فى حياته الفردية .

وعبادة المسلم فى جميع فرائضها تتكفل له بالتنبيه الدائم إلى هاتين الحقيقتين [2] .

لقد عد الإسلام قضية التوحيد قضيته الأولى ، وقضيته الكبرى . توحيد الألوهية ، وإفرادها بخصائصها ، والاعتراف بها لله وحده ، وشمول العبودية لكل شىء ، ولكل حى ،

---

(١) د . محمد رأفت سعيد ، التوازن فى التصور الإسلامى ، ص ٢٧-٢٨ .

(٢) العقاد ، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، ص ١١١-١١٢ باختصار .

وتجريدها من خصائص الألوهية جميعاً [1] .

قال كعب بن عجرة - رضى الله عنه - : مر على النبى ﷺ رجل ذكر أصحابه من جلده ونشاطه ما أعجبهم فقالوا : يا رسول الله : لو كان هذا فى سبيل الله ؟ فقال : [**إن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين ، فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة ، فهو فى سبيل الشيطان**] [2] .

وعن أبى ذر - رضى الله عنه - أن أناساً ، قالوا : يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور ، يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضل أموالهم ، قال : [**أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به ، إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، قالوا : يا رسول الله : أيأتى أحدنا شهوته ، ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام ، أكان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر**] [3] .

---

(1) سيد قطب ، مقومات التصور الإسلامى ، ص ١١٦ ، ط : دار الشروق .

(2) أورده المنذرى فى الترغيب والترهيب ، ج٢ ، ص ٥٢٤ بهذا اللفظ عن طريق كعب بن عجرة ورواه البيهقى فى السنن الكبرى ج ٧ ، ص ٤٧٩ .

(3) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى ، كتاب الأذان ، باب الذكر بعد الصرة ، ج ٢ ، ص ٣٥٢ .

ثالثاً : شمول التشريع الإسلامى :

والتشريع الإسلامى تشريع كامل بكل معنى الكلمة ، فما من حدث ولا عمل يصدر عن الإنسان ، ولا علاقة تقوم بينه وبين غيره إلا وللشريعة حكم فيها [١] .

إن الإسلام لا يشرع للفرد دون الأسرة ، ولا للأسرة دون المجتمع ، ولا للمجتمع منعزلاً عن غيره من المجتمعات . إن تشريع الإسلام يشمل التشريع للفرد فى تعبده وصلته بربه ، وهذا ما يفصله قسم العبادات فى الفقه الإسلامى .

ويشمل التشريع الفرد فى سلوكه الخاص والعام ، وهذا يشمل ما يسمى الحلال والحرام ، أو الحظر والإباحة [٢].

وارتبط التشريع الإسلامى بالإيمان بالله ، والاعتقاد بوحدانيته ، ومنهجه الذى ينظم شئون الحياة فى جميع جوانبها السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، إذ أن - رسالة الإسلام عامة شاملة ، تنظم العلاقة بين الخالق والمخلوق ، كما تنظم حياة الإنسان فى الدنيا تنظيماً يربطها بالعقيدة ، ويخضعها لأحكام التشريع الإسلامى [٣] .

---

(١) د . عبد الكريم زيدان ، أصول الدعوة ، ص ٥١ .

(٢) د . يوسف القرضاوى ، الخصائص العامة للإسلام ، ص ١١٤-١١٥ .

(٣) د . عبد العظيم فودة ، الحكم بما أنزل الله ، ص ٢١ ، ط : دار الصحوة بالقاهرة سنة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

والإسلام حين يبنى تشريعه ومنهجه للحياة على هذا الأساس، إنما يهدف إلى غاية يعمل على تحقيقها فى كل جوانب الحياة ، هذه الغاية هى : صلاح المجتمع الإسلامى ، وتحقيق الخير والفلاح له فى كل شئون حياته ، ودفع الضرر والفساد الذى يصيب الفرد أو المجتمع إذا أعرض عن هدى الله وخالف أمره [1] .

كما أن الشريعة الإسلامية لم تأت لوقت دون وقت ، أو لعصر دون عصر ، أو لزمن دون زمن ، وإنما هى شريعة كل وقت ، وكل زمن ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ومن يراجع أحكام الشريعة ، يجد أنها كاملة لا نقص فيها ، ولا قصور ، شاملة لأمور الأفراد والجماعات والدول ، فقد صيغت نصوص الشريعة ، بحيث لا يؤثر على نصوصها مرور الزمن ، ولا يبلى جدتها ، ولا يقتضى تغيير قواعدها العامة ، ونظرياتها الأساسية [2] .

ولهذا وجدنا التشريع الإسلامى يشمل التشريع للمجتمع فى علاقاته المدنية والتجارية وما يتصل بتبادل الأموال والمنافع

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢١ .

(٢) محمد صالح عثمان ، وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية ، ص ١٦٨ ، ط : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، سنة ١٤٠١هـ.

بعوض أو بغير عوض من البيوع ، والإجارات ، والقروض والمداينات ، والرهن ، والحوالة ، والكفالة ، والضمان ، وغيرها [(١)] .

والباحث فى التشريع الإسلامى وما جاء به يكتشف فى وضوح : أن التشريع الإسلامى شامل لجميع شعب الحياة من أعمال الأفراد ، وعباداتهم ، وسيرهم ، وأخلاقهم ، وعاداتهم ، وآدابهم فى الأكل ، والشرب ، والجلوس ، والقيام ، واللباس ، والكلام ، والشئون الأسرية ، والصلات الجماعية ، والقضايا المالية ، والاقتصادية ، والإدارية ، وحقوق الوطن ، وواجباته ، والعدالة ، ومرافق الحكومة ، وحالات السلم ، والحرب ، والعلاقات بالأمم الأجنبية ، وما إليها (٢) . مما عنيت به كتب السير ، أو الجهاد فى الفقه الإسلامى ... ومن هنا لا توجد ناحية من نواحى الحياة ، إلا دخل فيها التشريع الإسلامى ، آمراً ، أو ناهياً ، أو مخبراً [(٣)] .

وحسب الباحث والدارس : أن أطول آية نزلت فى كتاب الله - تعالى - نزلت فى تنظيم شأن من الشئون المدنية ، وهو المداينة ، وكتابة الدين ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا

---

(١) د . يوسف القرضاوى ، الخصائص العامة للإسلام ، ص ١١٥ .

(٢) محمد صالح عثمان ، وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية ، ص ١٦٩ .

(٣) د . يوسف القرضاوى ، الخصائص العامة للإسلام ، ص ١١٥ .

إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فإن كان الذى عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليّه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم ﴾[1] .

والآية تتضمن : إرشاد الله لعباده المؤمنين ، إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها ، ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها ، وأضبط للشاهد فيها [2] . والآية تتضمن كثيراً من الأحكام الدالة على شمول التشريع الإسلامى ، فما هناك شعبة

(١) البقرة : ٢٨٢ .

(٢) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج ١ ، ص ٤٩٥ .

من شعب الحياة ، ولا أمر من أمورها ، إلا وقد تناولتها الشريعة الإسلامية ، وأوضحت لنا فيها الخير من الشر ، والطاهر من الخبيث ، والصحيح من الفاسد ، وهى بذلك تعطينا صورة كاملة ، ومبدأ راسخاً لنظام صالح للحياة ، وتوضح لنا بكل تفصيل ما هى الحسنات ، التى يجب أن نقيمها ، ونرقيها ، وننميها ونأخذ بها ، وما هى السيئات التى يجب أن نعمل على محوها ، واستئصال شأفتها ، والبعد عنها ، وما هى الحدود التى يجب ألا تتجاوزها حريتنا [1] .

ويمكن للباحث أن يتعرف على أمثلة للشمول فى التشريع الإسلامى كثيرة ، مثل :

* أحكام الأسرة من نكاح وطلاق ، وإرث ونفقة ، وتسمى فى الاصطلاح : بأحكام الأسرة أو الأحوال الشخصية .
* أحكام تتعلق بعلاقات الأفراد ، ومعاملاتهم ، كالبيع ، والإجارة ، والرهن ، والكفالة .
* أحكام تتعلق بالقضاء والدعوى ، وأصول الحكم ، والشهادة ، واليمين ، والبينات .
* أحكام تتعلق بمعاملات الأجانب غير المسلمين عند دخولهم إلى إقليم الدولة الإسلامية ، والحقوق التى يتمتعون بها ، والتكاليف التى يلتزمون بها .

---

(١) محمد صالح عثمان ، وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية ، ص ١٦٩ .

* أحكام تتعلق بتنظيم علاقات الدولة الإسلامية بالدول الأخرى فى السلم والحرب .
* أحكام تتعلق بنظام الحكم وقواعده ، وشكل الحكومة ، وعلاقات الأفراد بها ، وحقوقهم إزاءها .
* أحكام تتعلق بموارد الدولة الإسلامية ، ومصارفها ، وتنظيم العلاقات المالية بين الأفراد والدولة ، وبين الأغنياء والفقراء .
* أحكام تتعلق بتحديد علاقة الفرد بالدولة ، من جهة الأفعال المنهى عنها ، والجرائم ، وإنزال العقوبات بالمجرمين ، وكيفية تنفيذها [١] .

ويبدو شمول التشريع الإسلامى فى أمر آخر ، وهو : النفاذ إلى أعماق المشكلات المختلفة وما يؤثر فيها وما يتأثر بها ، والنظر لها نظرة محيطة مستوعبة مبنية على معرفة النفس الإنسانية ، وحقيقة دوافعها ، وتطلعاتها ، وإشراقها ، ومعرفة الحياة البشرية ، وتنوع احتياجاتها ، وتقلباتها ، وربط التشريع بالقيم الدينية ، والخلقية بحيث يكون التشريع فى خدمتها وحمايتها [٢] .

فالنظم الإسلامية ما ضاقت عن حاجة ، ولا وقفت عقبة فى سبيل مصلحة ، أو عدالة . بل وسعت مصالح الناس ، على اختلاف أجناسهم ، وألسنتهم ، وألوانهم ، إذ كانت الدولة

---

(١) د . عبد الكريم زيدان ، أصول الدعوة ، ص ٣٠ .

(٢) د . يوسف القرضاوى ، الخصائص العامة للإسلام ، ص ١١٥-١١٦ .

الإسلامية فى عصورها الذهبية تمتد رقعتها من بلاد الصين شرقاً ، إلى جبال أسبانيا غرباً .

وكان البحر المتوسط بحيرة إسلامية ، تخفق الراية الإسلامية على ممالكه ، وكانت هذه الولايات المختلفة تضم أمماً متباينة الأجناس ، والعادات والأديان والمصالح من عرب وفرس وروم وغيرهم ، وقد نظمت الدولة الإسلامية شئون هذه الأمم ، والشعوب بنظم وتشريعات إسلامية [1] .

رابعاً : شمول الأخلاق فى الإسلام :

ومن أهم خصائص وسمات الاتجاه الخلقى فى الإسلام : الشمول ، وذلك لشمول الإسلام لجميع جوانب الإنسان فى الإيمان والعبادة ، وفى المعاملة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى : اتسمت الأخلاق بالشمول ، لقوة وعظمة العلاقة بين الإنسان وخالقه القائمة على العبودية لله وحده ، لا شريك له ، والدينونة لله وحده بلا منازع ، وشمول هذه العبودية لكل شىء [2] .

فالاتجاه الخلقى للإسلام لم يدع جانباً من جوانب الحياة الإنسانية ، إلا رسم له المنهج الأقوم والأمثل لقواعد السلوك .. ففى جانب الإيمان يقول الرسول ﷺ : **[أكمل المؤمنين إيماناً**

---

(١) محمد صالح عثمان ، وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية ، ص ١٧٠ .

(٢) سيد قطب ، مقومات التصور الإسلامى ، ص ٨١ .

أحسنهم خلقاً][1] . فقوله ﷺ صريح فى أن الأخلاق من الإيمان ، ولذا عد الإسلام الإيمان براً ، قال الله تعالى : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم والآخر والملائكة والكتاب والنبيين** ﴾[2] .

فالبر صفة للسلوك الخلقى ، ومن هنا كانت الأخلاق فى الإسلام لا تدع جانباً من جوانب الحياة الإنسانية .. روحية أو جسمية دينية أو دنيوية .. عقلية أو عاطفية .. فردية أو اجتماعية إلا رسمت له المنهج الأمثل للسلوك الرفيع [3] .

وما من خصلة حث عليها القرآن الكريم ، إلا كان تقدير جمالها بمقدار نصيبها من الوازع النفسانى ، أو مقدار ما يطلبه الإنسان من نفسه ، ولا يضطره أحد إلى طلبه [4]ومن هنا : كان الشمول بين جوانب النفس سمة للاتجاه الخلقى فى الإسلام ، وأن من أخلاق الإسلام ما يتعلق بالفرد فى كافة نواحيه .

---

(1) رواه أحمد فى مسنده ج ٢ ، ص ٥٠ ، ٤٧٢ ، ٥٢٧ . ورواه الترمذى فى صحيحه ، كتاب الرضاع ، باب ما جاء فى حق المرأة على زوجها ج ٥ ، ص ١١٠ " وقال حديث حسن صحيح " .

(2) البقرة : ١٧٧ .

(3) د . القرضاوى ، الخصائص العامة للإسلام ، ص ١١٠ .

(4) العقاد ، الفلسفة القرآنية ، ج ٧ ، ص ٣٦ . ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد .

- جسماً له ضروراته ، وحاجاته ، يمثل هذا قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾[1] .

وقول الرسول ﷺ [إن لبدنك عليك حقاً][2] .

- وعقلاً له مواهبه وآفاقه . قال تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾[3] .

- ونفساً لها دوافعها ومشاعرها وأشواقها . قال تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾[4] .

فالإسلام يتجلى شموله فى أنه : يتناول الإنسان والكون والحياة ، ثم تناول الإنسان من جميع جوانبه ، الخارجية المادية ، والداخلية الروحية ، لتستقيم حياته وسلوكه وأخلاقه ، وقد جاء بينهما بتوازن دقيق ، قال تعالى : ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾[5] .

---

(١) الأعراف : ٣١ .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى ، باب من أقسم على أخيه ليفطر فى التطوع ، ولم يرد عليه قضاء ج ٤ ، ث ٢-٩ .

(٣) يونس : ١٠١ .

(٤) الشمس : ٩-١٠ .

(٥) القصص : ٧٧

وبذلك وازن الإسلام بين روح الإنسان وجسده وبين فرديته وجماعيته ، وبين دنياه وآخرته ، فلا تنشطر سريرته وحياته أشطاراً مختلفة ، كما هو الحال فى المذاهب البشرية الأخرى (١) .

والإسلام يلائم بين المادة والروح ، ويوفق بين الدنيا والآخرة ، ويربط بين العبادة والحياة ، بل ينظر إلى الحياة على أنها وحدة متكاملة توظف الإنسان على أن يؤدى حق ربه ، وحق نفسه ، وحق غيره بكل دقة وأمانة وتساوٍ وتنسيق ، وبهذا يتسنى للإنسان أن يمارس الحياة الاجتماعية بكل طاقاته ، وأشواقه ، على أسس مبادىء الإسلام ، القائمة على الشمول ، والتى توافق الفطرة ، وتتلاءم مع واقعية الحياة (٢) .

ومن أخلاق الإسلام ما يتعلق بالأسرة ، كالعلاقة بين الزوجين ، وفضيلة هذه العلاقة : أنها علاقة سكن ، تستريح فيها النفوس إلى النفوس ، وتتصل بها المودة والرحمة والمشاركة القلبية والوجدانية (٣) . قال تعالى ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من**

---

(١) د . محمد نبيل غنايم ود . عمر سليمان الأشقر وآخرين . دراسات فى الثقافة الإسلامية ص ٢٣ ، ط : الثانية ، مكتبة الفلاح بالكويت سنة ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

(٢) عبد الله ناصح علوان ، هذه الدعوة ، ما طبيعتها ؟ ، ص ٤٣ ، ط : الثانية ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة بالقاهرة سنة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

(٣) د . أحمد السايح ، وصبرى عبد الرؤوف ، الأسرة المسلمة ، ص ٦٩ .

أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (1) .

ومن أخلاق الإسلام فى الأسرة : العلاقة بين الأبوين والأولاد ، والعلاقة بين الأقارب والأرحام .

ومن أخلاق الإسلام : ما يتعلق بالمجتمع فى آدابه ، وفى اقتصاده ، ومعاملاته وفى سياسته وحكمه (2) .

ومن أخلاق الإسلام : ما يتعلق بالحيوان والطير ، لأن من فضائل الإنسان المهذب : أن يكون رؤوفاً بالضعفاء ، عطوفاً على البؤساء ، رفيقاً بالمحتاج إلى الرفق من الخلق ، رحيماً بمن مسّه الضر ، وعضّه الدهر ، جاهداً فى كشف ضره ، وتفريج كربه والإحسان إليه ، والعطف عليه ، متخلقاً بهذه الأخلاق الإسلامية الفاضلة ، يجد فيها إمتاع نفسه وانشراح صدره ، وارتياح قلبه ، بريئاً من القسوة ، وتحجر القلب ، وجمود العاطفة لا بالنسبة لأخيه الإنسان فحسب ، بل وكذلك بالنسبة للحيوان الأعجم ، الذى لا يملك لنفسه نفعاً ، ولا عنها دفعاً ، بل يكون به أرفق وله أرحم .

---

(1) الروم : 21 .

(2) د . يوسف عبد الهادى الشال ، الإسلام وبناء المجتمع الفاضل ، ص 196-281 ، ط : الأزهر سنة 1392هـ/1971م .

المبحث السادس: اليسر والسماحة

الإسلام هو الدين الوحيد الذى احتوى بين دفتيه منهجاً متكاملاً ، لديه القدرة الكاملة والشاملة على إتيان النفوس ، ومن أبوابها الطبيعية والتغلغل فيها من طريق مؤثراتها الفطرية التى لا تجد النفس السوية معها مناصاً إذا مستها اشراقات الحق والخير ، من التسليم إليها والاستجابة لها .

لقد كان الإسلام -ولا يزال - دين الفطرة النقية ، والتشريع السمح الذى يتسم بالسهولة واليسر والبعد عن التشدد والتعقيد ، فى كل مناحيه ، ومقاصده ومراميه .

راعى الله فى الإسلام ما تقتضيه النفوس ، وما جبل عليه الخلق ، فجعل تكاليفه غير زائدة على قدرتهم ، بل إنه من أجل ما يحمله من عناصر البقاء والعموم ، لجميع البشرية ترك الآصار والأغلال ، التى ضربها على بنى إسرائيل جزاء ظلمهم .

قال الله - سبحانه وتعالى - فى ذلك : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون** ﴾ (١) .

---

(١) الأعراف : ١٥٧ .

وذلك اليسر والسهولة فى أحكامه واضح ، لكل من تتبع الشريعة فى أصولها وفروعها ، وقد زخر كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بالنصوص التى تدل على ذلك وتؤيده قال تعالى :

﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ﴾ [1] .

وقال تعالى : **﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾** [2] .

وقال تعالى : **﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾** [3]

وقال تعالى : **﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾** [4] .

فهذه الآيات - وغيرها كثير - تنطق بنفى الحرج فى مسائل الدين كلها ، وتدل بوضوح على أن الله أراد أن تكون

---

(١) الحج : ٧٨ .
(٢) المائدة : ٦ .
(٣) البقرة : ١٨٥ .
(٤) النساء : ٢٨ .

مبنية على أساس من السعة والتيسير والسماحة [1] .

وإذا تصفحنا كتب السنة وجدناها تحمل وقائع كثيرة من أفعال النبى ﷺ : [**أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة**] [2] .

وأخرج الإمام أحمد : أنه ﷺ قال [**إن خير دينكم أيسره**] [3] . وأن الصحابة - رضى الله عنهم - سألوه عن أشياء تحرجوا منها ، فقال لهم : [**إن دين الله - عز وجل - فى يسر ثلاثاً**] [4] .

وكان فى ذروة وصاياه ﷺ لقواد الجند ، وأمراء الولايات : أن يعملوا على أساس من اليسر ، ودفع وتجنب التشديد ، وكل ما كان من شأنه إعنات الناس والتشديد عليهم [5] .

---

(١) د . عبد العزيز بن عبد الرحمن الربيعة ، صور من سماحة الإسلام ، ص ١٠ - ١١ ، ط : دار المطبوعات الحديثة بجدة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى ، كتاب الإيمان ، باب الدين يسر ج١ ، ص ٩٣ .

(٣) رواه أحمد فى مسنده ، ج ٥ ، ص ٣٢ ، ج ٤ ، ص ٣٣٨ .

(٤) رواه أحمد فى مسنده ، ج ٥ ، ص ٦٩ ، من حديث عروة الفقيمى .

(٥) د . عبد العزيز الربيعة ، صور من سماحة الإسلام ، ص ١١ .

وروى أن النبى ﷺ قال لمعاذ ، وأبى موسى الأشعرى - حينما بعثهما إلى اليمن - : [**يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا**][1] .

ولقد فهم المسلمون الأولون هذا ، فدرجوا فى مسالك الكمال ، وصعدوا فى مراقى العلا ، يشمل الصفاء كل نواحيهم ، ويعمهم الحب والتفاهم فى تلاقيهم ، فقد وجدوا فى كنف دينهم السمح حياة هادئة مستقرة ، فسعدوا بظلالها الوارفة ، ونعموا بأنوارها الهادية .

لقد وجدوا فى هذا الدين ضالتهم المنشودة ، وجدوا فيه منهاجاً باراً ، حانياً ، عطوفاً ، يقدم لهم كل ما يطمئنهم ويثلج صدورهم ، ويبعد عنهم كل ما يسوؤهم ويحزنهم .

اليسر روح الإسلام وشامته :

لقد شرع الله هذا الدين لعباده فجعله سهلاً سمحاً واسعاً ، ولم يجعله ضيقاً حرجاً ، لتنفتح ، النفس البشرية من خلال مناهجه ، وتنمو وتزدهر ، وقد أشربت حسب عقيدته ، وتعاليمه ، واحترام مبادئه وآدابه ، والالتزام بأخلاقه وسلوكياته ، بعد أن رأت فيه الوجه الأصيل ، للفطرة النقية

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى ، كتاب العلم ، باب ما كان النبى يتخولهم بالموعظة كى لا ينفروا ج١ ، ص ١٦٣ وفى كتاب الأدب ، باب قول النبى ﷺ [**يسروا ولا تعسروا**] ، ج ٢٠ ، ص ٥٢٤ .

التى فطر الله الناس عليها ، من السهولة ووضوح القصد ، والبعد عن كل ما من شأنه تكليف الإنسان من أمره عسراً ، ووضعه فى دائرة الضيق والحرج ، إذ يريد - الله تعالى - بنا اليسر ، ولا يريد بنا العسر ، الأمر الذى يبعث النفوس على الأمل ، ويحفز الهمم للنشاط والعمل .

قال الله تعالى : ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين** ﴾[1].

إنه على قدر الجهد يكون العمل ، وعلى قدر الوسع والطاقة يكون التكليف ، وعلى قدر العمل والإنتاج يكون الجزاء .

فالله -سبحانه وتعالى - لطيف بعباده ، ورحيم بمخلوقاته ، لم يكلف البشر فوق طاقتهم ، أويفرض عليهم ما ليس فى استطاعتهم ، شفقة عليهم ، ورأفة وإحساناً ، وتفضلاً منه عليهم .

كما أنه - سبحانه وتعالى - لا يحاسب العبد إلا بناء على الواقع الفعلى لما اقترفت يداه أو تلفظ به لسانه ، أو ما اكتسبته جوارحه عن حرية واختيار .

---

(١) البقرة : ٢٨٦ .

أما ما لا يملك دفعه من وسوسة النفس الأمارة بالسوء وهمساتها بالشرور والآثام ، وما قد يعزم العبد عليه ، دون أن ينفذ ما عزم عليه ، فإن الله لا يحاسب الإنسان على مثل هذه الأشياء تكرماً منه ، وشفقة على عباده من حيث إنه لم يكلفهم مالا يطيقون ولم يؤاخذهم بما لا يعلمون .

قال تعالى : : ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين** ﴾[1].

فالله - سبحانه وتعالى - لا يكلف عباده إلا ما يستطيعون تأديته ، والقيام به ، ولذلك كان كل مكلف مجزياً بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

فاضرعوا إلى الله أيها المؤمنون داعين : ربنا لا تعاقبنا إن وقعنا فى النسيان ، لما كلفتنا إياه ، أو تعرضنا لأسباب يقع عندها الخطأ ، ربنا ولا تشدد علينا فى التشريع ، كما شدّدت على اليهود ، بسبب تعنتهم وظلمهم ، ولا تكلفنا ما لا طاقة لنا به من التكاليف ، واعف عنا بكرمك واغفر لنا بفضلك ، وارحمنا

---

(١) البقرة : ٢٨٦ .

برحمتك الواسعة ، إنك مولانا ، فانصرنا يا رب من أجل إعلاء كلمتك ، ونشر دينك على القوم الجاحدين [1] .

ويقول ابن كثير : إن الله - سبحانه وتعالى - لا يكلف أحداً فوق طاقته ، وهذا من لطفه تعالى بخلقه ، ورأفته ، وإحسانه إليهم [2] ... فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها ولا يحملها إلا ما تسعه وتطيقه ولا تعجز عنه [3] .

فالإسلام - كما ترى - دين السماحة واليسر ، جاء بالحنيفية السمحة ، التى كانت منهجاً لإبراهيم - عليه السلام - وسائر الأنبياء : ﴿ **دينا قيما ملة إبراهيم حنيفاً** ﴾ [4] . لم يحرم الإسلام علينا ما حرّمه الكتاب من الأحبار والرهبان على أنفسهم وأممهم ، تعنتاً وتشدداً ، أو مغالاة ، بل أحل الله للمسلمين الطيبات ، وحرم عليهم الخبائث كما ضيقوا به على أنفسهم ، ولم يحل للمسلمين الخبائث التى أحلوها لأنفسهم ، لتستقيم الفطرة .

قال تعالى : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل**

---

(1) لجنة علماء التفسير ، المنتخب من التفسير ، ص ٦٩ .

(2) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج ١ ، ص ٥٠٨ .

(3) القاسمى ، محاسن التأويل ، ج ٣ ، ص ٧٣٤ .

(4) الأنعام : ١٦١ .

يأمـــرهم بالمعـــروف وينهـــاهم عن المنكر ويحلّ لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصـروه واتبعوا النور الذى أُنزل مـعـه أولئك هم المفلحون ﴾ [1].

يقول الفخر الرازى : إن شريعة موسى -عليه السلام - كانت شديدة ، وقوله : (**والأغلال التى كانت عليهم**) .. المراد منه : الشدائد التى كانت عبادتهم [2] وقد حرّم الله تعالى على بنى إسرائيل بعض الطيبات عقوبة لهم ، كما قال تعالى : **﴿ فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلّت لهم ﴾** [3] . والحاصل أن بنى إسرائيل كانوا فيما أخذوا به من الشدة فى الأحكام ، فى التوراة من العبادات ، والمعاملات الشخصية ، والمدنية ، والعقوبات ، كالذى يحمل أثقالاً يئن منها ، وهو مع ذلك موثق بالسلاسل والأغلال فى عنقه ويديه ورجليه ... فأخذ بنى إسرائيل بالشدة فى الأحكام .

وأن عيسى - عليه السلام - خفف عنهم بعض التخفيف فى الأمور المادية ، وشدّد عليهم فى الأحكام الروحية ، لما كان

---

(١) الأعراف : ١٥٧ .

(٢) الفخر الرازى ، التفسير الكبير ، ج ٨ ، ص ٢٧ .

(٣) النساء : ١٦٠ .

من إفراطهم فى الأولى وتفريطهم فى الأخرى ، وكل هذا وذاك قد جعله الله - سبحانه وتعالى - تربية موقوتة لبعض عباده ، ليكمل استعدادهم للشريعة الوسطى العادلة السمحة الرحيمة ، التى يبعث بها خاتم الرسل ، الذى أوجب اتباعه على كل من أدركه من الرسل وأقوامهم [1].

لقد خلق الإنسان وعلم ضعفه ، ومدى طاقته واحتماله ، فشرع له بالقدر الميسر الذى لا يستطيعه ، ولا يشق عليه :

﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ [2].

قال تعالى : **﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾** [3].

يقول الفخر الرازى : " هذا عام فى كل أحكام الشرع ، وفى جميع ما يسره لنا ، وسهله علينا ، إحساناً منه إلينا ، ولم يثقل التكليف ، كما ثقل على بنى إسرائيل " [4].

وإرادة التخفيف عن المسلمين - فيما أخذهم الله به من أحكام : "هى من حكمة الله ورحمته ، ليس لأحد أن ينازع الله فى حكمته ، أو يمسك عن عباده رحمته ، لأنه لا متعلق لأحد بهذه

---

(١) محمد رشيد رضا ، تفسير المنار ، ج ٩ ، ص ١٩٨ .

(٢) الملك : ١٤ .

(٣) النساء : ٢٨ .

(٤) الفخر الرازى ، التفسير الكبير . ج ٥ ، ص ٧٠ .

الإرادة ولا مطلوب فيها لأحد ، إنها خالصة من الله بعباده "[1].

ولا يفوت الباحث : أن يعرف أن الله سبحانه وتعالى قد هيأ نبيه محمداً ﷺ وأعده على نحو خاص ، يتواكب دائماً مع روح الإسلام ومنهاجه ، في اليسر والسماحة ، والتخفيف ورفع الحرج ، فكان خير نبي بعث بخير رسالة ، لخير أمة أخرجت للناس .

قال تعالى : ﴿ سنقرئك فلا تنسى * إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى * ونيسرك لليسرى ﴾[2].

نوفقك للشريعة اليسرى ، وهي : الحنيفية السمحة السهلة[3]. التي يسهل على النفوس قبولها ، ولا يصعب على العقول فهمها ، وقد جعلت الآية الإنسان هو الميسر للفعل ، وليس الفعل الميسر للإنسان ، فالفعل لا يحصل إلا إذا وجدت العزيمة الصادقة والإرادة النافذة لإيجاده ، مع التوفيق لسلوك أقوم الطرق ، التي توصل إليه[4].

---

(١) عبد الكريم الخطيب ، التفسير القرآني للقرآن ج ٥ ، ص ٧٦٥ ، ط : دار الفكر العربي ، بمصر .

(٢) الأعلى : ٦-٨ .

(٣) القرطبي ، الجامع لأحكام القران ، ج ٧ ص ١٠٩ .

(٤) مصطفى المراغي ، تفسير القرآن ، ج ٣٠ ، ص ١٢٤ .

فالله - سبحانه وتعالى - ما جعل الشريعة التى دعا إليها الرسول ﷺ إلا لتكون مصدر إشعاع ، ومنار هداية ، وموئل رحمة منه - سبحانه وتعالى - إلى عباده ، تشع من جوانبه السماحة واليسر ، قال تعالى :﴿ **طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى* إلا تذكرة لمن يخشى** ﴾[1].

فالإسلام دين لا تكلف فيه ولا إعنات ، ولا تنطع ، ولا تشدّد ، ولقد نعى النبى ﷺ على المتنطعين ، والمتزمتين ، ووضح أن عبادة الله - سبحانه وتعالى - تقوم على الالتزام بأوامره ، واجتناب نواهيه ،وطاعته بالقدر الميسور الملائم لطبيعة البشر، بلا تجاوز أو تقصير في حق الفرد ، وحقوق الآخرين عليه .

عن أبى هريرة -رضى الله عنه -عن النبى ﷺقال : [**إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا ، وقاربوا، واستعينوا بالغدوة والروحة ، وشىء من الدلجة**][2].

وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال [**هلك المتنطعون**] قالها ثلاثاً[3].

---

(١) طه : ١-٢ .

(٢) رواه آلبخارى فى صحيحه مع فتح البارى ، كتاب الإيمان ، باب الديْن يسر ج ١ ، ص ٩ - ٣٠ .

(٣) رواه مسلم فى صحيحه بشرح النووى ، كتاب العلم ، باب النهى عن اتباع متشابه القرآن ، ج ١٦ ،ص ٢٢٠ .

وعن أنس - رضى الله عنه - قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها ، وقالوا : أين نحن من النبى ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

قال أحدهم : أما أنا فأصلى الليل أبداً ، وقال آخر : وأنا أصوم الدهر أبداً ولا أفطر ، وقال الثالث : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ، فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال : [**أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى**] (١) .

لقد نهى الإسلام عن الغلو فى الدين ، من غير مراعاة لحق النفس ، وحقوق الآخرين قال رسول الله ﷺ: [**ولا تغلوا فى دينكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بغلوهم فى دينهم**] (٢) .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى ، كتاب النكاح ، باب الترغيب فى النكاح ، ج ٩ ، ص ١٠٤ .

(٢) رواه أحمد فى مسنده ج ١ ، ص ٢١٥ ، ٣٤٧ ، ورواه النسائى فى سننه ، كتاب المناسك ، باب التقاط الحصى ج ٥ ، ص ٢٦٨ .

وقال ﷺ : [**الإسلام متين ، فأوغل فيه برفق ، لن يشاد الدين أحد إلا غلبه**] .

ومن سماحة الإسلام ويسره : إباحة طعام أهل الكتاب[1] ، ومشروعية الرفق بأهل الذمة[2] **والرحمة العامة بالناس كلهم ،** قال رسول الله ﷺ: [**الراحمون يرحمهم الرحمن ، وارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء**][3] وقال : [**من لا يرحم لا يرحم**][4] .

وقال ﷺ : [**إن لله تعالى - مائة رحمة ، أنزل منها رحمة واحدة فى الأرض .. الحديث**][5] .

---

(١) ابن قدامة ، ج ٩ ، ص ٣٩٠ تحقيق : محمود عبد الوهاب فايد ، وعبد القادر أحمد عطا ، ط : مكتبة القاهرة سنة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .

(٢) د . يوسف القرضاوى ، غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى ، ص ٩ - ٣٠ ط : مكتبة وهبة بالقاهرة سنة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧ م .

(٣) رواه أحمد فى مسنده ، ج ٢ ، ص ١٦٠ .

(٤) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى ، كتاب الأدب ، باب رحمة الولي وتقبيله ومعانقته ج ١٠ ، ص ٤٢٦ .

(٥) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى ، كتاب الأدب ، باب جعل الله الرحمة مائة جزء ، ج ٥ ، ص ٤٣١ .

لقد بلغ الإسلام فى تسامحه أنه إذا دخل دار الإسلام حربى مشرك ، فلا يجوز للمسلمين أن يتعرضوا له بسوء ، بل إن مبادئ الإسلام توجب على ولى الأمر أن يأمر بحماية هذا الحربى المشرك ، حتى يبلغ مأمنه ، قال تعالى : ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه** ﴾ [1] . وذلك حينما نقض المشركون عهدهم مع رسول الله ﷺ : [**أمر الله المسلمين إذا انقضت الأشهر الحرم أن يقتلوا كل مشرك، أو يأسروه، أو يحصروه ، إلا من كان له عهد فعهده إلى مدته ، ومن تاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة فيخلى سبيله**] [2] .

يقول سيد قطب - رحمه الله - ومع هذه الحرب المعلنة علي المشركين كافة ، بعد انسلاخ الأشهر الأربعة ، يظل الإسلام على سماحته وجديته وواقعيته ، كذلك لا يعلنها حرب إبادة على كل مشرك ، إنما يعلنها حملة هداية ، كلما أمكن ذلك ، فالمشركون الأفراد الذين لا يجمعهم تجمع جاهلى يتعرض للإسلام ويتصدى . يكفل لهم الإسلام - فى دار الإسلام - الأمن ، ويأمر الله - سبحانه وتعالى - رسوله ﷺ أن يجبرهم حتى يسمعوا كلام الله ، ويتم تبليغهم فحوى هذه الدعوة ، ثم أنه يحرسهم

---

(١) التوبة : ٦ .

(٢) سيد قطب ، فى ظلال القرآن ، ج ١٠ ، ص ١٦٠٢ .

حتى يبلغوا مأمنهم .. هذا كله وهم مشركون [١] .

فالإسلام حريص على كل قلب بشرى أن يهتدى وأن يتوب ، حتى إذا لم يستجب المشركون ، فقد أوجب الله لهم على أهل دار الإسلام أن يحرسوهم بعد إخراجهم حتى يصلوا إلى بلد يأمنون على أنفسهم [٢] .

ولا عجب فى هذا كله ، فمحمد ﷺ كان مؤسس دولة ، عهد إليها الحق أن تحدث حدثاً لا مثيل له فى تاريخ البشر ، تسقط به دولاً ، وتقيم به أخرى ، وتنشر فى الأرض تعاليم الإسلام بالسماحة والتيسير على الناس .

من يسر الإسلام فى الطهارة :

لقد جاء الإسلام حكيماً فى توجيهاته ، شريفاً فى وسائله ومقاصده ، نبيلاً فى أهدافه وغاياته ، كريماً عندما قدَّر ضعف الإنسان ، وراعى ظروفه ، لأنه أدرى بالمصلح له من المفسد ، فتعامل معه برفق وحنان ، كما يتعامل الطبيب الماهر مع مريضه على النحو الذى يكفل له السلامة ، ويضمن له الصحة والعافية .

والباحث فى صفحات يسر الإسلام وسماحته ، يجد جوانب متعددة ، ورياً متجدداً وزاداً لا ينفد .

(١، ٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦٠٢ .

فالإسلام على يسر فى كافة أحوال المسلمين وسائر شئونهم ، ليظفروا بمرضاة الله ، ولتزهر بهم شجرة الحياة ، لأن كل ما فوق الوسع والطاقة ، لا يكلف الله به عباده حتى لا يتطرق إليهم الملل ، ولا يشيع فيهم السأم ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ [1] .

لقد راعى الله ظروف الإنسان العارضة ، وقدر أحواله الطارئة التى تخرج عن إرادته ، فنظر إلى ذلك اليسر والتسامح والتخفيف ، رفعاً للإثم ، ودفعاً للحرج ، فأباح التيمم لعباده عند المرض ، أو السفر الذى يمنع من استعمال الماء ، أو عند فقدانه توسعة منه على عباده ، ورحمة بهم ، وذلك بالصعيد الطيب .

فالله - تعالى - غنى عن عباده ولا يشرع لهم إلا ما فيه الخير والنفع لهم ، قال تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنباً فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾** [2] .

---

(١) البقرة : ٢٨٦ .

(٢) المائدة : ٦ .

فالإسلام دين السماحة ، يريد للمنتسبين إليه اليسر ، ولا يريد بهم العسر فلقد رخص الشارع للمريض الذى يضره استعمال الماء ، أو المسافر الذى ليس لديه من الماء ما يكفيه لطهارته ، أو المنقطع فى مكان ليس به ماء : أن يتيمم صعيداً طيباً تيسيراً من الله ورحمة بعباده . فالله - سبحانه وتعالى - ما يريد ليجعل على المسلمين فيما شرعه حرجاً ما ، ولا أدنى ضيق ، ولا أقل مشقة [1] .

فلهذا سهل الله على المسلمين ، ويسر ولم يعسر ، بل أباح التيمم عند المرض وعند فقد الماء ، توسعة عليهم ، ورحمة بهم [2] .

وكانت الشرائع السابقة لا يجوز فيها قربان الصلاة بدون تطهر بالماء ، مهما كانت الظروف والملابسات ، ثم إنها تشترط فى إجرائها أن تفعل فى أماكنها الخاصة بها ، فجاء الإسلام دين اليسر والسماحة فخفف من وطأة تلك الأحكام ، وراعى جميع الأحوال التى قد يتعرض لها المسلم ، فأباح له أن يتيمم عند فقده للماء ، أو خوفه على نفسه باستعماله لبرد أو مرض شديد [3] .

عن جابر - رضى الله عنه - قال رسول الله ﷺ : [**أعطيت**

---

(1) مصطفى المراغى ، تفسير القرآن ، ج ٦ ، ص ٦٤ .

(2) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج٣ ، ص ٥٥ .

(3) د . عبد العزيز الربيعة ، صور من سماحة الإسلام ، ص ٣٩ .

خمساً لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ..] [1] .

من يسر الإسلام فى الصلاة :

لقد أراد الله لعباده اليسر والتخفيف ، فأمرهم بالصلاة بالقدر الذى يتيسر لهم ، وتتحمله قواهم البدنية ، حتى لا يسأم الناس ، فيملوا الطاعة ، والناس منهم المريض ، والمسافر والمجاهد الذى لا يستطيع ذلك ، فخفف الله عن الجميع تفضلاً منه وتيسيراً على عباده .

قال تعالى : ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرأوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله فاقرأوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ [2] .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى ، كتاب التيمم ، ج ١ .

(٢) المزمل : ٢٠ .

فالله يعلم أنكم لن تحصوا ساعات الليل إحصاء تاماً ، فإذا زدتم على المفروض ثقل ذلك عليكم ، وكلفتم ما ليس بفرض ، وإن نقصتم شق هذا عليكم ؛ فتاب عليكم ، ورجع بكم من تثقيل إلى تخفيف ومن عسر إلى يسر ، وطلب منكم أن تصلوا ما تيسر بالليل[1] .

فلا تتجاوزوا ما قدّره لكم رحمة بأنفسكم ويقول تعالى :

﴿ وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبينا ﴾[2] .

السفر يفرض على صاحبه أن يسير فى برنامج غير برنامجه الذى استمرأ سلوكه فى حال الإقامة ، كما أنه يفرض عليه تجشم المصاعب من الإدلاج ، والسهر ، والتعرض للبرد ، أو الحر ، أو إعواز الماء ، وخوف الانقطاع ، فهو حينئذ ليس بمطمئن البال ، ولا مستريح الجسم ومن أجل ذلك كان السفر مظنة للمشقة والعناء ، فكان جديراً بأن يحظى بنوع من اليسر والسهولة فى التكاليف ، كى يستطيع المسافر القيام بها ، دون إدخال له فى الحرج[3] ولهذا ليس على المسلمين جناح أن يخففوا

---

(١) مصطفى المراغى ، تفسير القرآن ، ج ٢٩ ، ص ١٢٠ .

(٢) النساء : ١٠١ .

(١) القاسمى ، محاسن التأويل ، ج ١٦ ، ص ٥٩٦٣ .

من عدد ركعات الصلاة ، بأن نجعل الرباعية ثنائية[٢] .

ومن يسر الإسلام وسماحته فى الصلاة أنه قد يطرأ على الإنسان ما يجعله لا يستطيع أداء الصلاة المكتوبة قائماً ، كما هو الحال فى الظروف العادية المألوفة كأن يكون فى حالة خوف من عدو متربص ، أو وحش مترقب ، إنه فى هذه الحالة يصلى كيفما تيسر له ، راجلاً أو راكباً ، حيثما توجه ولا تسقط بحال .

هذا إذا كان منفرداً ، أما إذا كانت جماعة : فلها أحكام مبسوطة فى كتب الفقه .

قال تعالى : ﴿ **فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون** ﴾ [٣] .

يقول القرطبى : فكما أمر الله تعالى بالقيام له فى الصلاة بحال القنوت ، وهو : الوقار ، والسكينة ، وهدوء الجوارح ، وهذا على الحالة الغالبة من الأمن والطمأنينة ، ذكر حالة الخوف الطارئة أحياناً ويبين أن هذه العبادة لا تسقط عن العبد بحال ، ورخّص لعباده فى الصلاة على الأقدام ، وركباناً على الخيل والإبل ونحوهما ، إيماء وإشارة بالرأس حيثما توجه ، هذا قول العلماء وهذه هى صلاة الفذ ، الذى قد ضايقه الخوف على نفسه ، من سبع يطلبه أو من عدو يتبعه ، أو سيل يحمله ، وبالجملة فكل

---

(٢) د . عبد العزيز الربيعة ، صور من سماحة الإسلام ، ص ٥٠ .

(٣) البقرة : ٢٣٩ .

أمر يخاف منه على روحه فهو مبيح ما تضمنته هذه الآية [1] .

فإن خاف المسلمون أى ضرر من القيام قانتين لله ، صلوا كيفما تيسر لهم راجلين أو راكبين ، وفى هذا تأكيد للمحافظة على الصلاة ، وبيان أنها لا تسقط بحال ، إلا حال الخوف على النفس أو المال أو العرض مظنة العذر فى تركها ، كما يكون السفر عذراً فى ترك الصيام .

والسبب فى عدم سقوطها على المكلف فى حال ، أنها عمل مذكر بسلطان الله - سبحانه وتعالى - المستولى علينا ، وعلى العالم كله ، وما الأعمال الظاهرة إلا مساعدة على العمل القلبى المقصود بالذات ، إذ من شأن الإنسان أنه إذا أراد عملاً قلبياً ، يحتاج إلى جمع الفكر ، وحضور القلب ، أن يستعين على ذلك ببعض ما يناسبه من قول وعمل .

فإذا تعذر القيام ببعض الأعمال البدنية فلا تسقط العبادة القلبية ، وهى : الإقبال على الله ، مع الإشارة إلى تلك الأعمال بقدر المستطاع ، ويكون ذلك حين قتال العدو ، أو الفرار من أسد ، فيصلى المكلف راجلاً أو راكباً إن حانت الصلاة ، لا يمنعه من ذلك الكرّ والفرّ ، والطعن والضرب ، ويأتى من أقوال الصلاة وأفعالها بما يستطاع من ركوع وسجود ، ولا يلتزم التوجه للقبلة [2] .

فالصلاة لما كانت خير ذكر ، قصر أمر الله بها المؤمن ، وكلفه

---

(1) القرطبى ، الجامع لأحكام القرآن ، ج ١ ، ص ١٠٣١ .

(2) مصطفى المراغى ، تفسير القرآن ، ج ٢ ، ص ٢١٣ .

بذاتها على أي وجه استطاعه ، والمؤمن من يجب عليه أن يذكر الله في كل أحيانه ، كما كان يفعل النبي ﷺ لأنه بذكر الله تطمئن القلوب ، وبالتفكير في ملكوته وآلائه يرسخ الإيمان ، والصلاة من الذكر ، فإن صلى الإنسان وكان مريضاً يشق عليه القيام ، صلى قاعداً ، فإن لم يستطع فعلى جنبه ، يومئ إيماء ، فما جعل الله على المسلمين في الدين من حرج .

قال تعالى : ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾[1] . وإذا كانت الآية في الصلاة ففقهها : أن الإنسان يصلي قائماً ، فإن لم يستطع فقاعداً فإن لم يستطع فعلى جنبه[2] .

ما أعظم رحمة الله بعباده ، وما أجلها من رحمة ، وما أيسر تشريعاته التي شملت الدين كله ، فقد جمع الله تشريعاته السمحة بين خيري الدنيا والآخرة ، فأمر عباده بالضرب في الأرض ، إما سعياً على العيش الحلال ، وإما جهاداً لنشر دينه وإعلاء كلمته ، مع تيسير العبادة لهم في السفر صلاة وصوماً حسب حالهم وطاقتهم .

والنبي ﷺ كان مثالاً يحتذى لأمته في عدم التضييق

---

(١) آل عمران : ١٩١ .

(٢) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج ٢ ، ص ١٥٥٢ .

والتشديد ، فلقد كانت صلاته وخطبه ومواعظه ، لا بالقصيرة المخلة ، ولا بالطويلة المملة ، وكذلك تعلّم منه ، واقتدى به أتباعه ﷺ . عن عمران بن الحصين - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : [**صل قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب**] (1) .

وعن المغيرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : [**صل بصلاة أضعف القوم**](2) .

وعن عائشة رضى الله عنها : أن النبى ﷺ دخل عليها وعندها امرأة ، قال : [**من هذه ؟ قالت : هذه فلانة تذكر من صلاتها قال : "مه عليكم بما تطيقون . فوالله لا يمل(3) حتى تملوا "**](4) .

---

(1) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى ، كتاب تقصير الصلاة ، باب إذا لم تطق قاعداً فعلى جنب ، ج ٢ ، ص ٥٨٧ .

(2) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى ، كتاب الأذان ، باب من شكى إمامه إذا طول ، ج ٢ ، ص ٢٠٠ .

(3) (لا يملّ) أى يعطى الثواب ، ولا يعجز ، ولا يعرض عن العبد ، ولا يقطع عنه الإقبال عليه بالرحمة والإحسان . (حتى تملوا) أى تقصروا فى طاعة الله ، وتعرضوا عن عبادته بعد الدخول فيها ، لملالة النفس . ابن حجر ، فتح البارى ، كتاب الإيمان ، باب أحب الدِّين إلى الله أدومه ، ج ١ ، ص ١٠٢.

(4) رواه البخارى فى صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب أحب الدِّين إلى الله ، ج ١ ، ص ٤٢ .

فالإسلام - كما ترى - : هو المنبع الصافى ، الذى يستقي منه المسلم ما يصلح حاله فى الدنيا والآخرة ، مع التيسير عليه ، حتى يتمكن من أداء ما كلف به على خير وجه .

من يسر الإسلام فى الصيام :

لقد راعى الإسلام السهولة واليسر ، والبعد عن الغلو ، والتشديد ، فراعى ظروف كل إنسان فى تشريعاته الرحيمة ، قوة وضعفاً ، صحة ومرضاً ، فصار بلا ريب دين الفطرة ، بكل ما تتسع له هذه الكلمة من مضمون ، ومدلول ، فعندما شرع الصوم راعى ظروف المسافر والمريض ، الذى يشق عليه الصوم ، والمرأة إذا كانت حاملاً أو مرضعاً ، والشيخ الهرم ، والذين يقومون بأعمال شاقة ، فخفف عنهم ، وجعل لهم من الأحكام الميسرة السمحة ما يجعلهم يشعرون بالطمأنينة والرضا ، فيقبلون على طاعة الله بقلوب راضية ونفوس مطمئنة .

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون * أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ [1].

---

(١) البقرة: ١٨٣ - ١٨٤ .

فالمريض والمسافر لا يصومان ، لما فى ذلك من المشقة عليهما بل يفطران ويقضيان بعد ذلك من أيام أخر [1] .

وصوم رمضان فى أصل مشروعيته رحمة وتيسير ، وفضل وإحسان ، فحينما ننظر إلى هذه العبادة فى مراحلها المختلفة ، وجوانبها المتعددة ، نجد اليسر والسماحة صفة بارزة فيها ، فالأيام التى يجب صيامها قليلة جداً ، بالنسبة لأيام السنة ، قال تعالى : ﴿ **أياماً معدودات** ﴾[2] .

إن الإسلام يتسم باليسر والسماحة ، مما دفع الكثير من الناس إلى الدخول فى هذا الدين ، الذى جاء بالتكاليف ، التى تتجاوب معها الفطرة ، إذ ليس فى العقائد التى اعتنقتها البشرية على مدى تاريخها الطويل ، كعقيدة الإسلام السمحة ، التى انتظمت شئون الخلق ديناً ودنيا ، على أحسن نظام ، وأكمل منهج .

لقد راعى الإسلام فى جميع تشريعاته الضعفاء والمرضى وأصحاب الأعذار ، فلم يكلفهم فوق طاقاتهم ، بل شرع ما يناسبهم من الرخصة والتيسير والتخفيف ، قال تعالى : ﴿ **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر**

---

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .

(٢) البقرة : ١٨٤ . انظر : د . عبد العزيز الربيعة ، صور من سماحة الإسلام ، ص ٦٢-٦٣ .

فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون ﴾[1]

فالله سبحانه وتعالى - أوجب الصوم على سبيل السهولة واليسر ، إذ أنه قد أوجبه فى مدة قليلة من السنة ، ثم ذلك القليل لم يوجبه على المريض ، ولا على المسافر ، وكل ذلك رعاية لمعنى اليسر والسهولة [2].

وجاء فى تفسير المنار ، فى قوله تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر .. ﴾[3] .هذا التعليل لما قبله ، أى يريد فيما شرعه من هذه الرخصة فى الصيام وسائر ما يشرعه لكم من الأحكام أن يكون دينكم يسراً تاماً ، ولا عسر فيه ، وفى هذا التعبير ضرب من التحريض والترغيب فى إتيان الرخصة ، ولا غرو ، فالله يحب أن تؤتى رخصه ، كما تؤتى عزائمه ، وذلك بأن الله لا يريد إعنات الناس بأحكامه ، وإنما يريد اليسر بهم وخيرهم ومنفعتهم[4] .

---

(١) البقرة : ١٨٥ .

(٢) الفخر الرازى ، التفسير الكبير ، ج ٣ ، ص ٩٨ .

(٣) البقرة : ١٨٥ .

(٤) محمد رشيد رضا ، تفسير المنار ، ج ٢ ، ص ١٣٢ .

يسر الإسلام فى تشريعاته :

لقد بنى الإسلام تشريعاته كلها على اليسر والسماحة والرحمة ، ولم يقصد بتكاليفه -على وجه عام- عنتاً ولا إرهاقاً ، ولم يأمر بشىء فوق طاقة البشر ، وإنما جعل لهم رخصاً ، إذا عجزوا عن القيام بالتكاليف .

وإذا كانت آية الله قد أوضحت أن الغرض من التشريع الإسلامى هو التيسير فإن سنة رسول الله ﷺ قد واكبت دعوة القرآن الكريم ، مما دفع الناس إلى النظر فى الإسلام ، والبحث عنه ، والدخول فيه .

روى ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : خطب رسول الله ﷺ فقال : [**إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه ، إلا أن الله فرض فرائض وسن سنناً ، وحد حدوداً وأحل حلالاً ، وحرم حراماً ، وشرع الدين ، فجعله سهلاً ، وسمحاً واسعاً ، ولم يجعله ضيقاً**] (1) .

وكل ما سبق من غير شك فرائض حتمية ، لها إيحاءاتها الحيوية ، والمهمة والواجبة ، التى لا سبيل إلى غيرها ، مما دعا الناس إلى التفكير فى الإسلام ، والدخول فى عتبته .

على أن دين الإسلام رفق كله ، لا حرج فيه ، ولا عنت ، ولا إصْر ، ولا مشقة ، ولا تزمت ، ولا جمود ، وإنما يسر وتخفيف ،

---

(1) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير ، ج ١١ ، ص ٢١٣ .

وبر ورحمة ، واستصحاب لمصلحة الخلق ، واعتبار لمعاذيرهم ، ورعاية لأحوالهم ، فى استيعاب وشمول ، وليس على المسلم الحق من شيء بعد بذل طاقته ، وأداء وسعه ، ولا تكليف له مطلقاً ، ولا التزام فوق هذا الوسع ، وهذه الطاقة .

وهذا فى ذاته من خير ما يوحى بمرونة الإسلام ، وفطريته ، ويسره وسماحته وإنسانيته ، وعدله ، وقسطاسه ، وقصده .

قال تعالى : ﴿طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾[2] .

يقول ابن كثير : " يريد الله أن يخفف عنكم فى شرائعه ، وأوامره ، ونواهيه وما يقدره لكم " [3] .

قال الإمام أحمد بسنده إلى عروة ، قال : كنا ننتظر النبى ﷺ فخرج يقطر رأسه من وضوء أو غسل ، فصلى ، فلما قضى الصلاة جعل الناس يسألونه : علينا حرج فى كذا .. فقال رسول الله ﷺ : [إن دين الله فى يسر ، ثلاثاً يقولها] .

---

(١) طه : ١-٢ .

(٢) النساء : ٢٨ .

(٣) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، ص ٢٣٣ .

وقد يؤتى المتزمت المتشدد من قبل نفسه ، فتعجز عن عونه ومساعدته ، وتنقطع به وسط الطريق على صورة قد لا تتفق ودين الله -عز وجل - قال ﷺ : [إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى][1] .

وأن الباحث ليقف على سيرة الرسول ﷺ الأسوة الحسنة ، فيجدها في سلوكه ، وعاداته ، وعباداته ، ومعاملاته ، إذ كان اليسر والتيسير والسماحة دأبه ، وديدنه ، الذى يلتزم به ، ويوصى به أمته وأصحابه ويحذرهم من أن يتجاوزوه ، ويبين لهم أن خير دينهم أيسره ، وأن يكون التيسير والتبشير ، وتسكين النفوس ، وطمأنتها ، وتهدئة خواطرها ، وعدم فتنها وإفزاعها وإقلاقها ، هدفاً أصيلاً من أهدافها ، التى تدعو إلى انتشار الإسلام .

التيسير والسماحة في الدعوة:

إذا كان - كما عرفنا - أن الإسلام خير كله ، ويسر كله ، وأن خير الدين أيسره ، فإن خير الحياة أيضاً - أيسرها وأقربها إلى الفطرة ، وإذا كان الله - تعالى - قد حرّم على الناس أشياء ، فقد حرمها لخبثها ، بينما أحل أكل الطيبات .

---

(١) رواه البخارى في التاريخ الكبير ، ج١ ق ١ ، ص ١٠٢ ، ط. دار الكتب العلمية ، بيروت .

فلا ينبغى للإنسان أن يشق على نفسه ، ويجنح بها إلى التضييق ، والحرج ، والعنت ، والمشقة ، ويمنعها من المباح (يحبس عنها الطيبات التى أحل الله) .

إن نفس الإنسان مطيته ، إذا أحسن استخدامها ، وأخذها باليسر ، وعدم إعناتها ، والمشقة عليها ، سلمت وبقيت له تؤدى مهامها المنوطة بها ، والغايات المتوخاة منها .

ما أجل الإسلام وما أعظمه من دين ، وهو يوجه الدعاء والمصلحين ، وأن يحتكموا فى عملهم ، ومهمتهم إلى أدب الدعوة ، ومنهجها من الحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالتى هى أحسن .

قال تعالى : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ [1] .

فهذه الآية نزلت بمكة المكرمة ، وفى وقت الأمر بمهادنة قريش ، وأمره أن يدعو إلى الله بتلطف ولين ، دون مخاشنة وتعنيف ، وهكذا ينبغى أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة [2] .

فالله سبحانه وتعالى - كما ترى يأمر نبيه الكريم - ﷺ بأن تكون دعوته قائمة على المنهج الذى يمثل الكمال كله ، فى غرس المعارف وتربية النفوس .

---

(١) النحل : ١٢٥ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ، ج٤ ، ص ٣٨١٦ .

ومن الدعوة بالحكمة : مراعاة مقتضى الحال ، ومخاطبة كل قوم بما يعرفون ، وأخذهم بالرفق ، والتيسير ، والسماحة ، والتلطف . واختيار الوقت المناسب ، للموعظة التى يراد وعظهم بها ، حتى تتقبلها النفوس ، وتنتفع بما فيها من خير .

إن الرسول ﷺ طبيب يحمل الدواء إلى العقول والقلوب والأرواح ، ومن هنا كانت مهمته عسيرة شاقة ، يحتاج معها إلى بصيرة نافذة تتسلل إلى خفايا النفس الإنسانية وتضع يدها على موضع الداء ، ثم تختار من الدواء ما يشفى العلة ، ويذهب الداء [1] .

وإذا كان منهج الدعوة ليس إلا من صنيع الحق - تبارك وتعالى - ومن تنزيله ، فلقد كان الوحى يوجه الرسول ﷺ إلى أحكم آدابه ، وأمثل أساليبه من المدعوين ، وذلك بأن يفتحوا لهذا الدين قلوبهم ، ويجيلوا فيه عقولهم ، ويستلهموها صواب الفكر ، ورشاد الموقف ، وحيدة النفس ، وفى روية وأناة ، من غير انغلاق ، ولا تحجر .

قال تعالى : ﴿ **قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد** ﴾ [2] .

---

(١) عبد الكريم الخطيب ، التفسير القرآنى ، ج ١٤ ، ص ٣٩٨ .

(٢) سبأ : ٤٦ .

وإنما طلب منهم التفكير ، وهم متفرقون اثنين اثنين ، أو واحداً ، واحداً ، لأن فى الازدحام تهويش الخاطر والمنع من إطالة التفكير وتخليط الكلام ، وقلة الإنصاف [1] .

والآية الكريمة تكشف عن أسلوب الدعوة الإسلامية ، القائم على مواجهة العقل ودعوته بالحكمة والموعظة الحسنة ، وإعطائه حقه فى طلب الدليل المقنع ، والبرهان الواضح ثم الاعتراف له بما يقتضى به بعد النظر السليم ، المجرد من الهوى ، المبرأ من التحدى والعناد .

فهذه رسالة الإسلام فى الإنسانية ، أنها تريد أولاً وقبل كل شيء : أن تحرر العقل من العادات الفاسدة ، والمعتقدات الباطلة ، التى استولت عليه ، وشلت إرادة التفكير فيه .

فإذا تحرر العقل من هذه الآفات ، وتخلص من القيود ، فقد كسب نصف المعركة فى صراعه مع الباطل ، ثم كان عليه بعد هذا : أن يكسب النصف الآخر ، حتى يتخلص من الضلال ويخرج من عالم الظلام إلى عالم الهدى والنور وهو أن يدير عقله على هذا الوجود ، وأن ينظر فيه بعقله المتحرر ، فإنه إن فعل ، فلابد أن يهتدى إلى الله ، ويتعرف إليه ، ويؤمن به [2] .

قال تعالى : ﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل**

---

(١) مصطفى المراغى ، تفسير القرآن ، ج ٢٢ ، ص ٩٦ .

(٢) عبد الكريم الخطيب ، التفسير القرآنى للقرآن ، ج ٢١ ، ص ٨٣٨ .

إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾ [1].

والمعنى- كما يقول الألوسى - " ولا تجادلوا أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، إلا بالتى هى أحسن ، أى بالخصلة التى هى أحسن ، كمقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم ، والمشاغبة بالنصح ، والتسرع بالأناة [2] فلا تجادلوا من أراد الاستبصار فى الدين ، إلا باللين والرفق [3] .

ولقد كان رسول الله ﷺ أحرص الناس على تبليغ الإسلام ، وأحناهم على تبليغ الدعوة ، ببذل قصارى جهده فى الدعوة إلى الله ، ونشر دينه فى الآفاق ، رغبة فى هدايتهم وإيمانهم ، وكان يتوسل إلى ذلك بشتى صنوف القول ، الذى يتفجر بالرفق ، ويفيض باللين ، ويشع بالحرص ويتألق بالرغبة الأكيدة فى هدايتهم .

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : لما أنزل الله - عز وجل - : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ [4] . أتى النبى ﷺ

---

(١) العنكبوت : ٤٦ .

(٢) الألوسى ، روح المعانى ، ج ٦ ، ص ٤١٦ ، ط : دار الفكر العربى ببيروت ،

(٣) مصطفى المرغى ، تفسير القرآن ، ج ٢١ ، ص٥ .

(٤) الشعراء : ٢١٤ .

الصفا فصعد عليه ، ثم نادى : يا صباحاه [1] . فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله ﷺ : [**يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهر ، يا بنى لؤى : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتمونى؟ " قالوا : نعم . قال : " فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد "**] [2] .

ولقد كان رسول الله ﷺ ثاقب النظرة ، بعيد الأفق وهو يرسل أول مبعوث فى الإسلام ، وأول داعية له ، وسفير إلى المدينة المنورة ، عقيب إسلام أول طلائعها ، إذ تحرى أن يكون هذا الموقف على مستوى الدعوة ، وكان مصعب بن عمير خير من وقع عليه هذا الاختيار النبوى الأمثل ، الذى صادف أهله وقام بمهمته فى الدعوة خير قيام متوسلاً إليها برفقه ، وتحمله ، وأناته .

---

(١) يا صباحاه : كلمة تقولها العرب إذا صاحوا للغارة ، لأنهم أكثر ما يغيرون عند الصباح ، ويسمون يوم الغارة يوم الصباح ، كما يقولونها عند وقوع أمر عظيم ، ليجتمعوا ويتأهبوا له . شرح النووى على صحيح مسلم ج ٣ ص ٨٢ .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى ، كتاب التفسير ، باب : " وأنذر عشيرتك الأقربين " ج ٨ ، ص ٥٠١ .

التيسير في التقوى :

علّم الإسلام الناس : أن من حق النفس على صاحبها : ألا يرهقها ، ولا يكلفها من أمرها عسراً ، وألا يضطرها إلى الشطط ، والتجاوز والخروج عن الجادة بتكليفها مالا تطيق وما ليس فى وسعها .

ومن الصعب الباهر: أن الإسلام يلتقى بتشريعاته ، وتكاليفه مع هذا الحق ، فرغب فى تلبيته ، وحذر من مخالفته ،ونهى عن كل مالا يستجيب له ، ولو كان هذا فى نطاق الطاعة والعبادة .

فالإسلام دين اليسر والسماحة ، لا يمكن أن تلمس معه حرجاً ، أو مشقة فى أى جانب من ، عقيدة وشريعة ، وعبادات ، ومعاملات . قال تعالى : ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾[1] .

فاتقوا الله فى حدود ما تحمل أنفسكم ، وما تسع طاقتكم له ، لأن هذا الدين سهل سمح ، لا ينتفع به ، إلا إذا أخذ سمحاً سهلاً ، تتقبله النفوس ، وتنشرح له الصدور ، شأنه فى هذا شأن الطعام ، لا يفيد منه الجسم ، إلا إذا طابت له النفس ، واشتهته ، واستساغت طعمه واستطابت مضغه وبلعه [2] .

---

(١) التغابن : ١٦ .

(٢) عبد الكريم الخطيب ، التفسير القرآنى للقرآن ج ١٧ ، ص ١١٠٥ .

فالإسلام دين واقع ، ودين رحمة ، وعدل وإحسان وتيسير وسماحة ، لا يرى إلا أنهم بشر تتحكم فيهم نوازع وعواطف ، وتعرض لهم عوارض الضعف ويلحقهم ما يلحق الكائن الحى .

فقوله تعالى : ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم** ﴾ هو الميزان الذى يقوم عليه المؤمن أمر دينه كله ، وأن يتقى هذه الفتن التى تهب عليه من كل جهة بقدر ما يملك من قوة ، وما يتحمل من جهد ، لأن كل نفس لها طاقة من الاحتمال ، ولها قدر من القوة ، وإنه على طاقتها وقوتها تحاسب ، فتجزى بما كسبت وعلى ما اكتسبت [1] .

عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : [**ما خير رسول الله ﷺ- بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً ، كان أبعد الناس عنه ، وما انتقم رسول الله ﷺ إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها**] [2] .

يقول ابن حجر فى شرح الحديث : فيه الحث على ترك الأخذ بالشىء المعسر والاقتناع بالميسر وترك الإلحاح فيما لا يضطر إليه ، ويؤخذ من ذلك الندب إلى الأخذ بالرخص ، ما لم يظهر الخطأ [3].

---

(١) المصدر السابق ، ج ٢٨ ، ص ٩٩٢ .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى ، كتاب المناقب ، باب صفة النبى ﷺ ج ٦ ص ٥٦٦ .

(٣) ابن حجر ، فتح البارى ، ج ٦ ، ص ٥٦٧ .

ولقد كان صلوات الله وسلامه عليه ، القدوة فى التوجيه والتربية ، على القصد ، والتيسير ، والتوسط ، والاعتدال ، فما أعرض عن أمر إلا لحكمة ، تتمثل فى رغبته فى أن يرفق وييسر على أمته فى كل أمورهم .

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : **[دعونى ما تركتم ، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه وما أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم]**[1] .

قال ابن حجر : قال النووى : هذا من جوامع الكلم ، وقواعد الإسلام ، ويدخل فيه كثير من الأحكام كالصلاة لمن عجز عن ركن أو شرط ، فيأتى بالمقدور ، وكذلك الوضوء ، وستر العورة ، وحفظ بعض الفاتحة ، وإخراج بعض زكاة الفطر لمن لم يقدر على الكل .

وكان ﷺ كثيراً ما يركز على أن خير الطاعة ، وأكثرها قبولاً ، ما كانت يسيرة ، سهلة ، سمحة ، لا حرج فيها ، ولا مشقة ، ولا تزمت وأن القصد والتوسط ينبغى أن يكون هدف المسلم ، وغايته ، قال رسول الله ﷺ : **[إن خير دينكم أيسره]** .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه مع فتح البارى ، كتاب الاعتصام ، باب الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ ج ١٣ ، ص ٢٥١ .

وبعد هذا الذى عرضنا له فى إيجاز : نجد أن مجالات السماحة واليسر فى الإسلام تتصل بكل أمورنا ، وفى جميع ما يتصل بنا : فى الدين ، والدعوة والعادة والعبادة ، والحكم والعمل ، والنفس ، والأسرة ، والمجتمع ، والسلم ، والحرب ، وغير ذلك مما له بنا اتصال .

حقاً إن الإسلام دين السماحة واليسر ، لا يشق على الناس ، ولا يكلفهم من أمرهم عسراً ، فى مطعمهم ومشربهم ، وعبادتهم ، وسائر أساليب حياتهم .

إنه - دائماً - يضفى على الداخلين فيه هالة ، قوامها النبل والسمو والترفع ، والعطاء ، والتسامح ، واليسر والرحمة .

وأن تكون نفوسهم فى الذرا ، وأيديهم فى العليا يوثقون عراهم بمجتمعهم ، وينقلون على متون سلوكهم وواقعيتهم موارث دينهم ، وتبعات تكاليفهم ، ومقاليد ما بين أيديهم من أمانة الحق ، إلى من خلفهم حتى تظل كلمة الله موصولة فى البشر .

******

المبحث السابع: العقلية العلمية

من أوضح سمات القرآن الكريم التى أثارت انتباه الدارسين من رجال الفكر والباحثين من العلماء هى الإشادة بالعقل ، وتوجيه النظر إلى استخدامه ، للوصول إلى ما يفيد الإنسانية فى مسيرتها .

ويشير القرآن الكريم ، إلى العقل ومشتقاته ومترادفاته ومعانيه المختلفة فى أكثر من ثلاثمائة وخمسين آية مستخدماً لذلك كل الألفاظ التى تدل عليه أو ترشد وتشير إليه من قريب أو من بعيد من التفكير والتدبر ، والتذكر ، والحكمة ، واللب ، والنظر ، والرشد ، والرأى ، والعلم ، والفقه، والقلب ، والفؤاد إلى غير ذلك من الكلمات والألفاظ التى تدور حول الوظائف العقلية ، وعلى اختلاف معانيها وخصائصها . مما يعتبر إيحاءات قوية بدور العقل وأهميته بالنسبة للإنسان .

والقرآن الكريم كتاب تبليغ وإقناع ، وهداية وإرشاد ، يوقظ القلوب ، ويصلح العيوب ، ويشرح الصدور .. وليس أتم من التوافق بين تميز الإنسان بالتكليف وبين خطاب العقل فى القرآن الكريم ، بكل وصف من أوصاف العقل ، وكل وظيفة من وظائف الحياة الإنسانية .

يقول الكاتب الكبير عباس محمود العقاد : " إن الكتاب الذى ميز الإنسان بخاصة التكليف هو الكتاب الذى امتلأ بخطاب العقل بكل ملكة من ملكاته وكل وظيفة ، عرفها له العقلاء ، والمتعقلون . قبل أن يصبح العقل درساً يتقصاه الدارسون كنهاً

وعملاً ، وأثراً فى داخله وفيما خرج منه ، وفيما يصدر منه وما يئول إليه .

العقل وازع يعقل صاحبه عما يأباه له التكليف .

العقل رشد يميز بين الهداية والضلال .. العقل روية وتدبير .. العقل بصيرة تنفذ وراء الأبصار .. العقل ذكرى تأخذ من الماضى للحاضر ، وتجمع العبرة مما كان لما يكون وتحفظ وتعى ، وتبدئ وتعيد ، والعقل بكل هذه المعانى موصول بكل حُجة من حُجج التكليف وكل أمر بمعروف ، وكل نهى عن محظور . أفلا يعقلون ؟ أفلا يتفكرون ؟ أفلا يبصرون ؟ أفلا يتدبرون ؟ أليس منكم رجل رشيد ؟ أفلا تتذكرون ؟ .

إن هذا العقل بكل عمل من أعماله يناط به التكليف ، حُجة على المكلفين فيما يعينهم من أمر الأرض والسماء ، ومن أمر أنفسهم ، ومن أمر خالقهم وخالق الأرض والسماء .

والإشارة إلى العقل لا تأتى فى القرآن الكريم عارضة ، ولا مقتضبة فى سياق آية ، بل هى تأتى فى كل موضع ، مؤكدة باللفظ والدلالة .

وتتكرر الإشارة إلى العقل فى كل معرض من معارض الأمر والنهى التى يحث فيها الإنسان على تحكيم عقله ، أو يلام فيها الفكر على إهمال عقله ، ولا يأتى تكرار الإشارة إلى العقل بمعنى واحد من معانيه التى يشرحها النفسانيون من أصحاب العلوم الحديثة . بل هى تشمل وظائف الإنسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها .

فلا ينحصر خطاب العقل فى العقل الوازع ، ولا العقل المدُرك

ولا فى العقل الذى يناط به التأمل الصادق ، والحكم الصحيح ،بل يعم الخطاب فى الآيات القرآنية كل ما يتسع له الذهن الإنسانى من خاصة أو وظيفة .

فالعقل فى مدلول لفظه العام : ملكة يناط بها الوازع الأخلاقى أو المنع من المحظور والمنكر .

ومن خصائص العقل الإنسانى التى تميز بها :

أولاً : أنه ملكة الإدراك التى يناط بها القيم والتصور . وهذه الملكة على كونها لازمة لإدراك الوازع الأخلاقى ، وإدراك أسبابه وعواقبه تستقل أحياناً بإدراك الأمور فيما ليس له علاقة بالأوامر والنواهى .

ثانياً : أن العقل يتأمل الأمر يدركه ويقلبه على وجوهه ، ويستخرج منه بواطنه وأسراره ،ويبنى عليها نتائجه وأحكامه .

ثالثاً : ومن أعلى خصائص العقل " الرشد " ووظيفة الرشد فوق وظيفة العقل الوازع ، والعقل المدرك ، والعقل الحكيم ، لأن الرشد استيفاء لجميع هذه الوظائف وعليها مزيد من النضج والتمام والتمييز .

والعقل الذى يخاطبه الإسلام هو العقل الذى يعصم الضمير ويدرك الحقائق ويميز بين الأشياء ويوازن بين الأضداد ويتبصر العواقب والنتائج ويتدبر ويحسن الأذكار والروية .

ومن هذا المنطلق الإسلامى ، تعمق العلماء المسلمون فى علوم الحياة والحضارة الإنسانية ، وبعقلية علمية ، فكان منهم نوابغ الأطباء والفلكيين والرياضيين والكيمائيين ، وأوائل من اكتشفوا حقائق علمية فى مجالات كانت أولى المعالم على طريق

الباحثين والدارسين ... وكان العلماء المسلمون ينظرون إلى الكون وما فيه : على أنه أمور موضوعة للدراسة والبحث والانتفاع . ومن الحوادث الدالة على العقلية الموضوعة فى الفكر الإسلامى ، ما حدث مصادفة أن كسفت الشمس يوم مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ فقال قوم : إن الشمس كسفت لموت إبراهيم ، فقال رسول الله ﷺ [**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته**] .

وهكذا يقرر الرسول الصادق الأمين ، مبدأ علمياً ، ظل أبد الدهر ، هادياً إلى طريق الرشاد . وفى حادثة فيضان النيل بالإقليم المصرى ، موضوعة علمية ، تدل على نظافة الإسلام ، وطهارته . وذلك أنه كان الاعتقاد السائد فى مصر قبل الفتح الإسلامى : أن النيل لا يفيض إلا إذا ألقيت فيه فتاة حسناء لتموت فيه غرقاً . فلما حان وقتذاك كتب الوالى إلى عمر بن الخطاب فى المدينة المنورة ، عاصمة الخلافة الإسلامية يخبره ويستشيره فيما تعود عليه المصريون ، فأجاب عمر بإرسال رسالة يلقيها فى النيل ، وكان فى الرسالة : (من عمر أمير المؤمنين إلى النيل : إن كنت تجرى من عندك فلا حاجة لنا بك . وإن كنت تجرى بفضل الله ، فاللهم بارك لنا فيك) .

وبهذا قضى المسلمون على أسطورة ليس لها واقع علمى وعقلى فى الحياة .

وبالعقلية العلمية كانت علوم المسلمين ، هى أساس الحضارة فى العصر الأول وأخذت الحركة العلمية تتدرج فى أطوار

مختلفة ، حتى فتح المسلمون نافذة واسعة أطلوا منها على حضارات العالم . وكان المسلمون يعرفون المنهج الاستقرائى حق المعرفة ، وينتقلون من المعلوم إلى المجهول ويقومون بدراسة الظواهر ، دراسة دقيقة ، بقصد الانتقال من المعلوم إلى العلة .

ولما كان العقل فى الإسلام له هذه العناية الفائقة من التقدير ، فقد اتخذ له الإسلام منهجاً فريداً ، فى تحريره ليظل العقل عاقلاً ، والفكر راشداً .. وهذا المنهج الإسلامى يقوم على دعائم أساسية من شأنها حراسة العقل حتى لا يضل فى المتاهات الفلسفية .

ومن شأنها أيضاً ترشيد الفكر ، حتى يعمل فى ميادين الخير ، وما يفيد المجتمع الإسلامى والإنسانى .

وأول دعامة فى المنهج الإسلامى فى تحرير العقل والفكر هى تحرير الإنسان من أصفاد الجهل وظلمته .. لأن الجهل يقتل مواهب الفكر والنظر ، ويطفئ نور القلوب ، ويعمى البصائر ويميت عناصر الحياة والقوة فى الأفراد والجماعات والأمم .. ويفسد على الناس مناهج الاستقامة ، والسلوك المستقيم .. والجهل هو الذى يجعل النفوس مستعدة لقبول الزيف والبدع والأهواء والخرافات والأساطير .

والدعامة الثانية فى المنهج .. هى تحرير الإنسان من أغلال الحجر العقلى وسيطرة التبعية العمياء ، وتربيته تربية إسلامية تقوم على حرية الفكر ، واستقلال الإرادة ، ليكمل بذلك العقل ، ويستقيم التفكير ، وتكمل الشخصية الإنسانية ..

لأن كمال العقل ، واستقامة التفكير ، أساس فى صحة العقيدة وكمال التدين ومعرفة الحق الذى يجب أن يتبع ومعرفة الباطل الذى يجب أن يجتنب .

وقد عنى الإسلام ببناء وتحرير الإنسان من أغلال الحجر العقلى عناية كبرى فجعل البرهان أساس الإيمان الصحيح . وبين أن كل اعتقاد أو عمل لا يقوم على دلائل الحق فهو مردود ، وأنذر الذين يجادلون فى الله بغير علم ولا كتاب ، قال تعالى فى سورة الحج : ﴿ **ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير * ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق** ﴾[1] .

والدعامة الثالثة فى المنهج الإسلامى .. تحرير الإنسان من طاعة الأهواء والانقياد الأعمى لمغرياتها .. لأن طاعة الأهواء من أقوى عوامل انحراف الإنسان فى سلوكه والتوائه فى نظره ، وتفكيره ، وهؤلاء الذين يطيعون الأهواء لا يستقيم لهم رأى ، ولا تعتدل لديهم موازين ، ولا يخضعون لحق ليس فى جانبهم .

ولهذا عنى الإسلام بتحذير الناس من اتباع الهوى ، ونعى عليهم ضلالهم ، فقال تعالى فى سورة القصص : ﴿ **فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل**

---

(١) الحج : ٨ - ٩ .

ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾[1].

وعن عبد الله بن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال : [**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**] .

قال الإمام الحافظ ابن حجر : إن الإنسان لا يكون مؤمناً كل الإيمان الواجب حتى تكون محبته نابعة لما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهى وغيرها فيحب ما أمر به ويكره ما نهى عنه.

وإذا كان من شأن هذا المنهج أن يطهر العقل ، ويقوم الفكر ويسير به فى الطريق المستقيم .. فإن الإسلام أتبع ذلك بمبادىء قيمة ، من شأنها أن تصل بالناس إلى طريق الحق والهدى والخير والسلام .

أولاً : إن الناس فى الفهم والتفكير وإدراك حقائق الأشياء لن يكونوا متماثلين ، ولا متشابهين لأن الناس على درجات مختلفة ومراتب متباينة .. فهناك فريق من الناس قد لا تهيئ له حالاته والظروف المحيطة به إلا شذرات من المعرفة .. وثمة فريق آخر لم تعده وراثته إلا للسطحى من الأشياء وكم من الناس من قصرته البيئة على القشور من الحقائق ، وكم من الناس من حصرته التربية فى دائرة ضيقة من المرئيات .. وهناك من

---

(١) القصص : ٥٠ .

سجنته الخرافات والأساطير ..ومن الناس من جرفه تيار المادة ، فلم يعد يرى الأشياء إلا بمنظار مادى .. لهذا طالب الإسلام مختلف المستويات الإنسانية بالنظر والتأمل والتفكير فى ملكوت السماوات والأرض .

قال تعالى : ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت**﴾[1] .

قال تعالى : ﴿**أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبد منيب**﴾[2] .

وهناك كثير من الآيات التى تدعو إلى التفكير والنظر فى السماوات والأرض وما خلق الله فيها .. ليصل الإنسان إلى الإيمان بالله ، فيرتقى إلى السمو والكمال .

والإنسان بدون إيمان بالله لا قيمة له ولا اعتبار .. ولهذا نرى المجتمعات المادية واللادينية ، تساق كما تساق السائمة .

ويسوقها قطيع من الذئاب البشرية ، وقد حرمت هذه المجتمعات من التفكير والنظر ، ولم يعد لأفرادها أى شأن .

---

(١) الغاشية : ١٧ - ٢٠ .

(٢) ق : ٦-٨ .

ثانياً : لم يكتف الإسلام بتوجيه الناس إلى النظر والتفكير والتدبر . بل استنهض العقول ووجه الأفهام ، وأيقظ الحواس ، ونبه المشاعر ، وذلك بالتعقيب على بيان الآيات الكونية والتشريعية والاجتماعية بمثل قوله تعالى فى سورة الرعد :

﴿**إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون**﴾ .

وقوله تعالى : ﴿**إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون**﴾ .

وقوله تعالى فى سورة طه : ﴿**إن فى ذلك لآيات لأولى النهى**﴾ .

وقوله تعالى فى سورة يونس : ﴿**إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون**﴾ .

وقوله تعالى فى سورة الرعد : ﴿ **إنما يتذكر أولوا الألباب** ﴾ .

ثالثاً : بشر الإسلام الذين يستمعون القول فينظرون إليه نظر البصير ، ويتبعون منه ما يدل على الحق ، ويهدى إلى الرشد .. كما قال تعالى فى سورة الزمر : ﴿ **فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب** ﴾ .

وهكذا نرى أن الإسلام قد عمل على تطهير النفوس من الأغراض الخفية والأهواء الدفينة لأن ذلك من أكبر العوامل فى

أعتدال واستقامة التفكير . ومن هنا كانت حمله الإسلام شديدة على الذين لا يستعملون عقولهم ، وما وهب الله لهم من قدرات ذهنية .. ضاربين فى بيداء الضلال ، ومنقادين وراء سراب كل البدع والأهواء .

وإذا كان الإسلام يدعو إلى تحرير الإنسان من أصفاد الجهل وأغلال الحجر العقلى وسيطرة التبعية العمياء - كما عرفنا فى دعائم المنهج الإسلامى فى تحرير العقل - فإن ذلك يعنى أن التقليد الذى لا يميز بين الخير والشر وتقليد أهل الغواية والضلال .

أما تقييد أهل الحق من الأئمة والدعاة الذين استمدوا علومهم من القرآن الكريم والسنة المطهرة .. فهو من قبيل القدوة الواعية .

حرية الفكر التى دعا إليها الإسلام هى الحرية التى تطلق العقول والأفهام من أغلال الحجر العقلى ، والكبت الفكرى ، وتجلى معالم الحقائق ، وتجعل قيادة التوجيه ، قيادة بناء وإصلاح وإرشاد .... تستمد هداها من الإسلام وتعاليمه وتوجيهاته .

وطريق الفكر قد حدده الإسلام بالقرآن والسنة فيما يتعلق بالقضايا الأساسية والاعتقادية فى حياة النفوس .. أما ما سوى ذلك فإنه يمكن أن يؤخذ عن طريق الحواس والتجربة والعقل الذى يزن كل معطيات الحواس .. ولقد عبر القرآن الكريم عن

هذا الطريق بقوله تعالى فى سورة الإسراء : ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً** ﴾[1].

وهذه الآية تنهى عن اتباع ما لم يقم عليه علم يستند إلى حُجة سمعية ، أو رؤية بصيرية ، أو براهين عقلية ، وهي طرق الاستدلال التى تنحصر فى العقليات والسمعيات والمحسوسات

لهذا كله أقبل المسلمون على العلم ينشدونه فى مظانه ، ووجهوا عزائمهم على الفكر الأصيل القائم على توجيهات الإسلام .

وإننا نجدهم اهتموا بشيء واحد وعرفوا شيئاً واحداً ، وهو الإسلام والفكر الإسلامى فانتبهوا إلى آيات الله التشريعية ، وآيات الله العلمية والحضارية .. ولم يشغلهم عن ذلك ترف الحضارة ، ولم يثن عزائمهم بأساء الحياة .. وأقاموا الحضارة الإسلامية التى تخطت مراحل النهوض فى تاريخ الشعوب والأمم .

واستطاعوا فى سرعة لم يُعهد لها مثيل فى التاريخ أن ينتقلوا من أمة الأمية إلى أمة العلم والقيادة الفكرية وأن يصبحوا أساتذة العلم والعالم ، وقادة الفكر والرأى ، ورواد المعرفة والحضارة .

وبحثوا ، ودرسوا ، وأضافوا ، وجددوا ، وابتكروا ، فكان ذلك

---

(١) الإسراء : ٣٦ .

النتاج الحضارى الأصيل وقد حققوا ذلك على الرغم من الأحداث العاتية التى حملوا أعباءها والحروب الطاحنة التى خاضوا غمارها .

لأن الأحداث والخطوب ، وإن بلغت ما بلغت ، لا تستطيع أن تقف فى طريق العقائد التى انطوت عليها القلوب ، ولا أن تمنع العزائم القوية من الوصول إلى أغراضها وأهدافها .. ولعلنا لا نكون مجانبين للصواب إذا قلنا إنه لاول مرة فى تاريخ الإنسانية ترى الدنيا هذه الخطوة الجبارة .

المبحث الثامن : إمكانات مادية

إن العالم الإسلامى يربض على الثروات المعدنية الهائلة ويتربع على الكنوز الثمينة ، ويملك من الحقول البترولية ، أجداها نفعاً ، وأكثرها ثراء وعطاء ، وأقواها تدفقاً ودفعاً . ويتبوأ استراتيجية هامة ، ويشغل من خريطة الدنيا حيزاً جغرافياً عظيماً .

فالإطار الخارجى الأقصى للعالم الإسلامى يصل شمالاً حتى أعالى الفولجا غير بعيد عن دائرة العرض ٦٠ درجة شمالاً ، ويترامى حتى نهاية إفريقيا عند الرأس على خط عرض ٣٥ درجة جنوباً .

أما شرقاً بغرب فنحن مع الإسلام ، ومن خط طول ١٢٠ درجة ، شرقاً حيث الفلبين إلى حوالى ٢٠ درجة غرباً ، عند الرأس الأخضر ، فهذه شقة تبلغ ٩٥ درجة بالطول ، ونحو ١٤٠ درجة بالعرض أى حوالى ربع وثلث محيط الأرض على الترتيب ، أو ما يعادل نصف دورة من دورة الليل والنهار ونصف دورة من دورة فصول السنة على التوالى .

ومحيط العالم المسلم يحدد أساساً بنصف الكرة الشمالى أولاً ، وبنصف الكرة القديم ثانياً ، فالإسلام جنوب خط الاستواء أطراف أو أصابع ثانوية وهو فى العالم الجديد شظايا سديمية متطايرة .

يمكن أن نعبر عن هذا الامتداد بأكثر من طريقة فنقول : إن الإسلام يمتد فى قوس محدد من بكين إلى كازان إلى بلغراد فى الشمال ، أو فى قاطع من فرغانة إلى غانا - كما كان يقول

مؤرخو الإسلام - أو فى قاطع آخر من جبل طارق الأطلسى إلى سنغافورة إلى جبل طارق الهادى ، أو من مالاجا بالأندلس إلى ملقا بالملايو ، إلى قبائل المورو بالفلبين كذلك يمكن أن تحدد قاعدة العالم الإسلامى فى الجنوب بمحور يمتد من قبائل التاجال بالفلبين ، أومن غينيا إلى غينيا الجديدة أما بالطول فدونك من الفولجا والدانوب حتى الزمبيزى والليمبوبو .

وتلك أبعاد لا تقل بحال عن نصف مساحة العالم القديم .

فالإسلام دين عالمى أو كوكبى - بلا مراء - رغم ما يدعيه البعض من أنه ديـن جزئى أو إقليمى أحياناً ، أو أنه ديـن (إفريقاسى) أحياناً أخرى . إذ يوشك ألا تكون هناك دولة فى عالم اليوم . لا يتمثل الإسلام فيها . ولو ببعض عشرات من الآلاف فى إستراليا وغرب أوروبا مثلاً .

وبالعالم الإسلامى قابليات بشرية فائقة ، والمسلمون يمثلون ٢٠٪ من مجموع سكان هذا الكوكب .

وبعبارة أقرب وأوجز ، يمكن أن نقول : إن واحداً من كل خمسة أشخاص يدين بالإسلام ، ومناطق العالم الإسلامى تعد - عند الباحثين والدارسين - من أقاليم النمو السكانى السريع .

فالعالم الإسلامى يشمل منطقة جغرافية تمتد من المحيط الباسفيكى شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً ، مجتازة جاليات ودولاً إسلامية ذوات طاقات بشرية واقتصادية وعقلية وحضارية لا حدود لها ، ومنطقة العالم الإسلامى تتميز بأنها :

* تقع من العالم موقع الحزام من جسم الإنسان ، بعيدة عن

القطبين ، وسالمة من الأعاصير والطوفانات والثلوج والبراكين، ولها دفء معين يساعد على تنوع الحاصلات الزراعية وتناسل الحيوانات البرية .

* وأنها تمتلك من شواطئ البحار الكبيرة والصغيرة ، ما يمكنها من الإشراف على عدد كبير من أعظم موانئ العالم ، كما أن بها من الأنهار والمنابع ما جعلها من أخصب المناطق ، وأكثرها ازدهاراً ونماء .

* وأن فيها من موارد الحضارة كالماء والنفط والمعادن ، والحاصلات الحيوانية والزراعية ما يمكنها من إغناء الحضارة الإنسانية ، وزيادة الأمن والرخاء .

* وبها من مواطن السياحة ما يرقى بها إلى أسمى قدر من التقدم والسمو والمجد والسؤدد .

* وأن التجانس المذهبى بين سكان العالم الإسلامى يجعل المنطقة فى منأى عن الانشقاق الملحوظ فى المذاهب الأخرى ، ويقرب بينها ويحفظ وحدتها ويزيدها تفاعلاً وتفتحاً وتقدماً .

وتلك أمور تجعل العالم المسلم قوة إيجابية مرهوبة الجانب ، مخطوبة الود ، يتهيب العدو بأسها ، ويخشى سلطانها ، وتجعله أيضاً مهيئاً للإسهام فى بناء الحضارة الإنسانية ، وإعادة صنع الحياة ، وإنقاذ البشرية من الهوة السحيقة المتردية فيها ووهدة الفوضوية والإباحية والاستعمار والإلحاد .

******

محتويات الكتاب

الموضـــــوع	الصفحة
* على سبيل التقديم	
للأستاذ الدكتور عبد الصبور مرزوق	٣
* مقدمــــة	٧
* الفصل الأول :	
مصادر القوة فى العالم الإسلامى	١٣
* المبحـــث الأول :	
الإيمان بالله	١٥
* المبحث الثانـى :	
الإخاء والوحدة	٢١
* المبحث الثالـث :	
العالميـــــة	٢٩

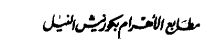
* المبحث الرابع :
الاستمرارية ٥٥

* المبحث الخامس :
الشمولية ٦٥

* المبحث السادس :
اليسر والسماحة ٨٧

* المبحث السابع :
العقلية العلمية ١٢٥

* المبحث الثامن :
إمكانات مادية ١٣٧


مطابع الأهرام بكورنيش النيل